

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

* * *

[أنا أنت عن كتب الحديث وما
أتى عن المصطفى فيها من الدين
كمسلم والبخاري اللذين هما
شداً عرى الدين في نقل وتبيين
أولى بأجر وتعظيم ومخمدة
من كل قول أتى من رأي سحنون
يا مَنْ هدى بهما اجعلني كمثلهما
في نصر دينك محضاً غير مفتون
الإمام أبو محمد ابن حزم.

* * *

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عيي أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع
لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو أكناف العراق صباة
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك يُدرى أن للبعد قصة
وأن كساد العلم آفته القرب
[الإمام أبو محمد ابن حزم

(ح) مكتبة دار ابن حزم، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن حزم، علي بن أحمد

رسالة التخليص لوجه التخليص - الرياض ١٤٢٦هـ

٣٣٢ ص؛ ٢٤ سم

ردمك : ٩٦٦٠-٧٩٥-٦٨-٣

١- الوعظ والإرشاد أ. الظاهري، سعود بن خلف (محقق)

١- العنوان

١٤٢٦/٥١

ديوي : ٢١٣

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٥١

ردمك : ٩٦٦٠-٧٩٥-٦٨-٣

[كفاني بذكر الناس لي ومآثري

ومالك فيهم يا ابن عمي ذاكرُ

عدوي وأشياعي كثيرٌ كذاك من

غدا وهو نفع المساعي وضائرُ

واني وإن أذيتني وعققتني

لمحتملٌ ما جاءني منك صابرُ

[الإمام أبو محمد ابن حزم يخاطب ابن عمه.

مُحْفَظَةٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع

الرياض . ص.ب : ٢٢٥٦٦ الرمز البريدي : ١١٤١٦

شارع السويدي العام - هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧ جوال ٥٠٣١٢٢٩٣٥
المملكة العربية السعودية

مكتبة الإمام أبي محمد ابن حزم
تحقيق مؤلفاته

(١)

رسالة التلخيص لوجوه التلخيص

للإمام أبي محمد ابن حزم الأندلسي الظاهري
رحمه الله تعالى

[من ظل ينبغي فروع علم
ببدءاً ولم يدر منه أصلاً
فكلما ازداد فيه سعياً

زاد لعمري بذاك جهلاً]
أبو محمد ابن حزم

خرج الأحاديث وعلق عليها :
أبو عبد الملك سعود بن خلف ابن نويميس الشمري الظاهري

قدم له وراجعته :
أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
(محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل)
- عفا الله عنهم -

[قال أبو عامر ابن شهيد يمدح الإمام ابن حزم - وكان يومها شافعيًا -:
 ودون اعتزامي هضبة كسروية
 من الحزم سلمانية في المكاسر
 إذا نحن أسندنا إليها تبلجت
 مواردنا عن نيرات المصادر
 وأنت ابن حزم منعش من عثارها
 إذا ما شرقنا بالجدود العوثر
 وما جد أذيال الغنى نحويته
 كأروع معرورٍ ظهور الجرائر
 إذا ما تبغي نضرة العيش كرها
 لدى مشرع للموت لمحة ناظر
 فسَلْ من التأويل فيها مهنداً
 أخو شافعيات كريم العناصر
 لمعتزلي الرأي ناه عن الهدى
 بعيد المرامي مستमित البصائر
 يطالب بالهندي في كل فتكة
 ظهور المذاكي عن ظهور المنابر

دعوني من إحراق رَقْ وكاغد
 وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
 فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
 تضمنه القرطاس إذ هو في صدري
 الإمام أبو محمد ابن حزم.

[

فهرس إجمالى

رقم الصفحة	اسم الموضوع
٧٤-٧	مقدمة الناشر
٧٨-٧٥	مقدمة المحقق
٧٩	النص محققاً
٨١	استفتاح المؤلف
٨٦-٨١	مقدمته، وهي جواب لرسالة إخوانية من أحد طلبة العلم.....
٩٦-٨٦	جوابه عن أفضل القربات، وعن الكبائر
٩٦	الموازنة بين الأعمال
١٣٥-٩٦	جوابه عن أفضل ما يشغل به الإنسان عمره، وعن السيرة الحمودة
١٦٥-١٣٥	تضمينه رسالته مراتب الحقائق في دار القرار
٢١٩-١٦٦	جوابه عن أحكام المعارف التي يشتغل بها ذوو العلم
٢٢١-٢١٩	جوابه عن أفضل النوافل
٢٣٠-٢٢١	جوابه عن حديث النزول، وإجابة الدعاء عنده
٢٣٤-٢٣٠	جوابه عن أحوال الفتن في الأندلس
٢٣٨-٢٣٤	جوابه عن أوجه السلامة في المكسب ، وهو ذو علاقة بالجواب السابق
٢٥٨-٢٣٨	جوابه عن تفاضل الكبائر
٢٦٧-٢٥٩	خاتمة المؤلف

٢٦٨-٢٦٧	بيانه لمنهجه
٢٧٦-٢٦٨	كلامه عن التوبة
٢٩٩-٢٧٧	الفهارس
٣٠٧-٣٠٠	ثبت بالمصادر

[قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى : «وأما معنى الفقه فهو التنبه لما في الآية من القرآن، ولما في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ من الأحكام.. وهذه درجة يعطيها الله عز وجل لمن يشاء من عباده.. قال رسول الله ﷺ : رُبَّ حامل فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه.. وقال عليه السلام: رُبَّ مبلغٍ أوعى من سامع.. أو كما قال عليه السلام؛ فصَحَّ بهذا أنه قد يكون في المتأخرين من هو أفقه من كثير من المتقدمين، وهذا نفس معنى كلامه ﷺ .. ومن قرأ كتب العلماء والفقهاء والسالفين والخالفين من المذكورين وغيرهم : وقف يقيناً على الأفقه منهم .. ولا سبيل إلى أن يعرف ذلك من اقتصر على رأي رجل منهم دون غيره ؛ لأنه يحكم بما لا يدري فيما لا يدري .. وهذا جور لا يحل » .

[

الرسالة الباهرة ص ٤٦-٤٧ .

الاستفتاح، والمقدمة للناسخ.

الحمد لله خالق الأمم ومفنيها، وباعث الرِّمَمِ ومُخَيِّها .. مُوجِدِ النفوس
ومسعدِها ومشقيها، مُفَصِّلِ الْقِسَمِ ومؤتيتها، عَالِمِ جِرمات^(١) الْعَالَمِ ومحصيها،
ومقدرها ومنشيها.. مُحَاسِبِ النفوس، الملك القدوس.. مانح العقل، مُفِيضِ
العدل .. إِلَهَ الْعَالَمِ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْعَالِمِ .. جل الله ربُّنا وعلا، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ له
الحمد في الآخرة والأولى .. أَحْمَدُهُ حمداً جزيلاً، بُكْرَةً وَأَصِيلاً، كما ينبغي لكرم
وجهه وجلاله، وسعة آلائه وإفضاله.. وأشهد أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك
له شهادة مُخلص في عِلَّته ونجواه، عالم أنه لا إِلَهَ لِلْعَالَمِ سواه .. وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله الأمين، الآتي بالحق المبين .. وصلواتُ الله وسلامه على
أنبيائه والمرسلين، واخصِّصِ اللهم منهم خيرَهم من نوع الإنسان - المبعوث إلى
الإنس والجان، المنسوخ بملته الملل ولا ناسخ لملته...^(٢) بشريته الثقلين إلى
انقضاء هذا العالم وقيام ساعته - بأفضل صلاة وأزكاها، وأرفع^(٣) درجة

(١) هكذا في الأصل الذي استعرت منه مقدمتي هذه - وهو المورد الأحلى - وهو يريد
جرائم العالم بدليل ما يأتي في السياق عن الحساب.. فإن كانت الجيم مضمومة فلا
أعلم لذلك وجهاً؛ لأن جمع الجرم أجرام وجروم.. وورد في لغة العرب « جَرِمَةٌ »
فالجمع جَرِمَات بفتح الجيم مثل كلمة وكلمات، وقد أورد اللغويون بيتاً لم ينسبوه لقائل
كما في تاج العروس ١٠١/١٦، وهو:

فإنْ مَوَلايَ ذُو يُعَيِّرُنِي لا إِحْسَنَ عِنْدَهُ ولا جَرِمَةَ

(٢) في الأصل مكان هذه النقطة « لـ » ولم أعرف معنى هذا الرسم؛ لأنه في طرف الصفحة،
وما بعده محو لم يظهره التصوير؛ فلعل الصواب « المَلْزَم ».

(٣) في طرف السطر « و » ثم بعد ذلك محو، والمحتمل « أرفع » أو « أعلى »؛ فأثبتُ أحد
الاحتمالين .

وأسماءها.. قال الله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب / ٥٦] ؛ فأورد تعالى هذا النص خبراً وأمرأ، وكفى بذلك فخراً ؛ فجزاه الله عنا أفضل ما جرى به نبياً عن أتباع دعوته ؛ فلقد أدى أمانة ربه، ونصح لأمته، وأوضح لهم سبيل الحق، ونهج لهم سنن الصدق، وأبان لهم وحي ربه تعالى وما أراد [منهم] ^(٤) فيما خاطبهم به ؛ فظهرت معالم شريعة الله على يديه، فيما أوحى تعالى إليه من القرآن مفصلاً منجماً مقدراً بأوقات الحوادث مقسماً؛ ليبينه رسوله وأمينه كما افترض عليه .. قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل / ٤٤]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [سورة النحل / ٦٤] .. قرن تعالى طاعته بطاعته، وجعل أثباعه شرطاً في استفادة محبته .. قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران / ٣١]، وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ^(٦) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ^(٧) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ^(٨) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٩) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ وَيَتَّقِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ^(١٠) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نَقْسِمُوكُمْ طَاعَةً

(٤) قال أبو عبد الرحمن : ما بين المعقوفين يقتضيه السياق، ويدل عليه حرف الميم الباقي في آخر السطر المسحوق ما بعده .

مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [سورة النور]، وقال تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة التغابن / ١٢]، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء / ٦٤]، وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب / ٣٦]، وقال تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء / ٨٠]، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [سورة الأنفال / ١]، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْمِعُوا وَلَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [سورة الأنفال / ٢٤]، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [سورة النساء / ٦١]، وقال تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور / ٦٣]، وقال تعالى : ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [سورة الحشر / ٧]، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ﴾ [سورة آل عمران / ٢٣]، وقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء / ٦٥]، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ

هي أحد الأصول المرجوع إليها عند التنازع .. ولا يجوز تنازع^(١٠) في المسألة إلا مع عدم الإجماع فيها .. والأصول ثلاثة والإجماع أحدها ؛ فإذا بطل الإجماع بالتنازع بقي الأصلان الآخران اللذان [الرد]^(١١) إليهما واجب عند التنازع ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَنْزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .. والبرهان قائم على أن المراد بقوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ : إنما معناه إلى القرآن والخبر .. تقديره : فردوه إلى كتاب الله تعالى وخبر رسوله [ﷺ] على تقدير حذف مضاف ؛ وبيان ذلك أن [الأمة]^(١٢) مجمعة على أن هذا الخطاب متوجه إلينا وإلى كل من يخلق إلى قيام الساعة من الثقلين، وإلى من كان في عصره^(١٣) عليه السلام، وكل من أتى بعدهم عصراً فعصراً^(١٤) ولا فرق، وقد علمنا علماً

(١٠) في الأصل : ولا يصح التنازع .. وصحح في الهامش بعلامتي « خ » فوق الكلمتين بعبارة « ولا يكون تنازع »، وعلامة « خ » تعني عند النساخ أن الحرف مخفف، وعلامة «خ» تعني الزيادة، فلعل نقط الحاء سهو وأن الأصل الحاء المهملة، وهي تعني الاحتمال .

(١١) في صورة الأصل وردت الكلمة آخر الصفحة محو نصفها ؛ فأثبت ما بين المعكوفين اجتهداً .

(١٢) ما بين المعكوفين يقتضيه السياق، وقد أثبتته من الإحكام ٩٧ / ١ .

(١٣) في الأصل : عصره .. وصحح في الهامش إلى «عهده» بعلامة «خ» .. قال أبو عبد الرحمن : كلمة عصر هي المناسبة لما يأتي من سياقه .. والذي في الإحكام ٩٧ / ١ « عهده »، ولكن لم ترد كلمة « عصراً فعصراً » .

(١٤) في صورة الأصل : « عصراً فعصراً إلى من على إلينا ولا فرق » ؛ فرسم « على » غير مفهوم، وعلى جملة « إلى من على » علامة التحويق، وكان ينبغي أن يشمل التحويق كلمة « إلينا » .

مشكوراً كثيراً من ذلك، وبقيت أمورٌ استدركتها بتحشيتي، واضطرت إلى المقارنة بنسخة المخطوط لرسالة التلخيص التي لا أعلم وجود غيرها الآن، وهي نسخة شهيد علي التي اعتمدها أستاذنا الدكتور إحسان عباس في تحقيقه للكتاب، وعلى طبعة الدكتور إحسان اعتمد المحقق الفاضل الشيخ سعود ابن نومييس .. كما أن الكتاب صدر بتحقيق الشيخ عبدالحق التركماني، وصدر عن دار ابن حزم بيروت، ومركز البحوث الإسلامية عام ١٤٢٣هـ، وقال في تصديره للكتاب : «ورد عنوان الرسالة في النسخة الخطية في فهرس المجموع، وفي أول الرسالة وآخرها هكذا : «التلخيص لوجه التلخيص»^(١٩) .. وذكرها العلامة الفيروزآبادي [٨١٧هـ] باسم « رسالة في التلخيص في تخلص الأعمال »^(٢٠) .. وذكرها الإمام الذهبي [-٧٤٨هـ] باسم كتاب إرشاد المسترشد ؛ فقال في « تاريخ الإسلام »^(٢١) في ترجمة أبي الخيار الشنتريني : « وقد ذكره أبو محمد ابن حزم، وأثنى عليه؛ فقال في كتاب « إرشاد المسترشد »: لقد كان لأهل العلم وابتغاء الخير في الشيخ أبي الخيار معتقداً قوياً، ومقصداً كافٍ .. نفعه الله بفضلته، ويعلمه، وصدعه بالحق، ورفع بذلك درجته » .

(١٩) التلخيص: التنجية من كل مُنْشَب .. تقول: خلّصته من كذا تخليصاً، أي نجّيته تنجية فتخلص، ومنه خلّصه الله من ورطته، وخلّص الشيء يُخلّصه تخليصاً صفاءً ونقاءً مما يشوبه .. ومنه خلّص الحب من الحصى، وخلّص الشيء: ميّزه من غيره .. ينظر لسان العرب مادة خلص [عبدالحق].

(٢٠) « البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة » الترجمة (٢٢٧) ص ١٤٧ تحقيق محمد المصري الكويت ١٩٨٧م .. وقد أثبت المحقق في المتن « تلخيص الأعمال »، وأشار في الهامش إلى أنها في النسخة الأخرى - من النسختين اللتين اعتمد عليهما في تحقيق الكتاب - (تلخيص الأعمال) .. قلت : هذا هو الصواب [عبدالحق].

(٢١) (٢٩/ ١٨٤ حوادث ووفيات (٤٢١-٤٣٠) الترجمة (٢١٥) [عبدالحق].

ضرورياً أنه لا سبيل لنا إلى لقاء رسوله عليه السلام لنكلمه، وكذلك من قبلنا [عصراً]^(١٥) فعصراً إلا من عاصره ولقيه عليه السلام.. وحتى لو شُغِب مشغِب بأن هذا الخطاب متوجه إلى ذلك في^(١٦) عصره لما أمكنه هذا الشغِب في الله تعالى؛ إذ لا سبيل إلى ذلك فيه^(١٧)؛ فبطل هذا الشغِب، وصح أن المراد بالرد المذكور في الآية إنما هو إلى القرآن والخبر المنقول على مر الدهور إلينا.. على أنه ليس في الآية ذكر لقاء ولا مشافهة، وإنما فيها الرد إليهما عند التنازع فقط.. والرد منا إليهما إنما هو عبارة عن تحكيمهما، وتحكيمهما إنما هو عبارة عن قبولهما، والانتهاء عما زجرا عنه.. وبالجملة فالمطلوب منا إنما هو الوقوف عند ما ذُكر به فيهما مما يوجب الزلفى لديه تعالى وننتهي بهذه الأصول إلى أقسام لا يخرج عن هذا العدد. وبالله تعالى التوفيق^(١٨).

قال أبو عبد الرحمن: أما بعد: فقد سررت بهذا العمل الذي ناولنيه أخي أبو عبد الملك سعود بن خلف ابن نعيمس الشمري الظاهري مع كتاب له آخر في أحكام الغناء؛ فوجدت في الأخير صورةً لاندفاعي وحاسي لظاهرة ابن حزم في صلف الشباب، ووجدت في الأول عناية بالصنعة الحديثية؛ وذلك بإسهابه في التخريج، وقد كتبت إليه بأن يُعنى بجانب الدراية وضبط النص، فأنجز

(١٥) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق.

(١٦) هكذا في الأصل إضافة إلى الهامش.. وفي الإحكام ٩٧/١: «إلى من يمكنه لقاء رسول الله ﷺ».

(١٧) قال أبو محمد في الإحكام ٩٨/١: «إذ لا سبيل لأحد إلى مكالمته تعالى».

(١٨) استعرت هذا الاستفتاح من كتاب «المورد الأحلى في اختصار المحلى» لأحد تلاميذ الذهبي، ولا يزال محفوظاً بالخزانة العامة بالرباط، ومادته كلام الإمام ابن حزم رحمه الله مفرقاً في كتبه.

(أدنى الإيذاء)؛ لأن هذا المجاز هو الغالب في الاستعمال وهو لا يحتاج إلى قرينة، والمعنى الحقيقي لا يفهم إلا بقرينة كأن يكون عند عود حطب مدخن؛ فيُطلب منه الأف لإطفائه، أو يكون عند سراج؛ فيمنع من الأف حتى لا ينطفئ .. وقد أسلفت أن الظاهر هو مراد المتكلم من خطابه سواء أكان بأسلوب الحقيقة أم بأسلوب المجاز .

قال أبو عبد الرحمن : ولقد سئلت كثيراً عن الظاهر في الصحافة وأجبت كثيراً بأجوبة متنوعة، ومن الأجوبة الحاضرة بين يدي الآن جواب حررته للأستاذين محمد بن عبد الله الفوزان من محافظة الغاط بمناسبة استفساره بقوله : « هل المذهب الظاهري مستقل عن المذاهب الأربعة كالزيدي، أو أنه مذهب متفرع عن أحدها مثل مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، أو مذهب لغوي؟؟ .. ومتى ظهر هذا المذهب ، وأين ظهر ، ومن أول القائلين به ، ولماذا يتسبب الشخص إلى المذهب كأنه كنية له؟؟ » ؛ فكانت إجاباتي بالإفادات التالية :

وجهه فشهد عليه من شهد ذلك كله؛ فقال الشاهد : إن زيدا - يعني القاتل أو القاذف أو الضارب - قال لعمرو: « أف » يعني المقتول أو المضروب أو المقدوف :- لكان بإجماع منا ومنهم كاذباً أفكاً شاهد زور مفترياً مردود الشهادة؛ فكيف يريد هؤلاء القوم منا أن نحكم بما يقرون أنه كذب؟.. فكيف يستجيزون أن ينسبوا إلى الله تعالى الحكم بما يشهدون أنه كذب؟ ونحن نعوذ بالله العظيم من أن نقول أن نهى الله عز وجل عن قول: « أف » للوالدين يفهم منه النهي عن الضرب لهما أو القتل أو القذف؛ فإذا لا شك عند كل من له معرفة بشيء من اللغة العربية أن القتل والضرب والقذف لا يسمى شيء من ذلك « أف »: فبلا شك يعلم كل ذي عقل أن النهي عن قول « أف » ليس نهياً عن القتل ولا عن الضرب ولا عن القذف، وأنه إنما هو نهى عن قول « أف » فقط .

قال أبو عبد الرحمن : لا يسمى الضرب والقتل أفاً، وإنما الأف مجاز عن أقل الإيذاء، فيحرم بالضرورة ما هو فوق الأقل والأدنى، وذلك هو ظاهر الكلام المركب بالمجاز الذي غلب استعماله، وهو قاضٍ على ظاهر مفردة « أف » لغة في غير كلام مركب.

الإفادة الأولى : أن مذاهب أهل القبلة على قسمين : مذاهب عقيدية^(٢٨) ومذاهب فقهية .. فالعقيدية مثل سنة وشيعة ومعتزلة وأشعرية وخوارج ؛ والفقهية مثل حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية .

والإفادة الثانية : إذا قيل مذهب الإمامية، أو الزيدية أو الإباضية فالمراد أنها مذاهب عقيدية وفقهية في آن واحد .

والإفادة الثالثة : ليس كل من انتسب إلى الأئمة الأربعة فقهياً يكون منتسباً إليهم عقدياً، ففي كل المذاهب الأربعة معتزلة وأشعرية .. إلخ .

والإفادة الرابعة : لم ينزل من الله بيان شرعي بأنه سيخلف محمداً ﷺ وأصحابه وتابعيهم أئمة أربعة لا يعدّوهم الحق، ولم يقر بذلك إجماع ولا ضرورة فكر .. بل هؤلاء الأئمة الأربعة رحمهم الله اجتهدوا واختلفوا في أمور يسع فيها الاختلاف، واجتهد من هو فوقهم أو مثلهم أو دونهم ؛ فكانوا ذوي مذهب مثل الليث والأوزاعي والسفيانيّين .. إلخ .

والإفادة الخامسة : من تلك المذاهب ما عمل به في بعض الآفاق مثل مذهب الأوزاعي في الشام والأندلس، ومذهب سفيان .. ومنها ما لم تقم به دولة تعمل به رسمياً ؛ فبقي بلا أتباع رسميين، وبقي مرجعاً للعلماء المجتهدين رحمهم الله جميعاً .

والإفادة السادسة : انتشرت المذاهب الأربعة لا لأن الحق صرف فيها، بل لأجل الدول التي تبنتها رسمياً؛ فكان المذهب الحنفي أكثر أتباعاً ؛ لأنه توارثه أكثر دول الإسلام امتداداً في الزمان والمكان - وهما الدولة العباسية والعثمانية - منذ كان أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله رئيس القضاء؛ فكثر أتباعهم

(٢٨) يثبت كثيراً أن الأصل - حسب الاستقراء اللغوي الكثير، لا التقنين النحوي - نسبة (فعلية) إلى (فعيلي)، وأن الفعل (ي) هو الاستثناء لمسوغ، وليس هو القاعدة .

تلقائياً وتلقيناً وتقيداً باتجاه الدولة في القضاء والفتوى والتعليم ؛ فكان التمدد مؤهلاً علمي .. وهكذا كان مذهب الدول مالكيًا في الغرب والأندلس بالله ثم بنشاط تلامذة الإمام مالك الذين حملوا علمه، وتقلدوا مناصب الديانة كيحيى ابن يحيى الليثي وأسد بن الفرات، ثم انتشر في إفريقيا بحكم الجوار، وكانت له دولة في الأحساء في عهد آل أجود العقيليين.. وكان مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله ذا دولة في العراق بعد المذهب الظاهري على يد أبي يعلى، وذا دولة في الجزيرة العربية .. ولا أدري في أي زمان أو مكان كان مذهب الإمام الشافعي مذهباً رسمياً رحمهم الله جميعاً، ولكنه منتشر مشتهر في مصر والمخلاف السليماني واليمن والحجاز وفي سوريا .

والإفادة السابعة : أن عند عوام بعض الأقطار جهالة رعناء، وهي قول بعضهم: هذا مذهب خامس !! .. يقولونها على سبيل الذم معتقدين ملقنين أن الصواب لا يعدوها، وأنها كلها صواب مع اختلافها !! .. وهم بهذا الجهل يذمون مذاهب العلماء المجتهدين كالليث والأوزاعي والحماديين والسفيانيين وابن ذئب وابن مهدي .. إلخ .. ثم أبي ثور والطبري وابن نصر .. إلخ .

والإفادة الثامنة: أن في أتباع الأئمة الأربعة علماء فحولاً مفكرين قلدهم فقهاً ولم يقلدهم عقيدة، أو قلدهم فيها معاً.. وقد قصرُوا بطوعهم واختيارهم اجتهادهم في دائرة أقوال إمامهم، ولا إمام لهم على الحقيقة في تلقي علم الشريعة غير محمد ﷺ .. ومن هؤلاء من ألف في الجزم بأن الصواب أو أكثره في اجتهاد إمامه كالإمام أبي المعالي الجويني رحمه الله .. والحق أن تُصرف هذه المواهب إلى الاجتهاد في نصوص الشريعة، ويكون اجتهاد الإمام مثل اجتهاد العلماء الآخرين يُنظر فيه ويُطلب الدليل .. أما العامي فيسأل العلماء، ويتحرى الحق عند من نصبه الإمام للفتوى، ويجتهد بوسائله في معرفة الأورع الأتقى بالإضافة إلى العلم .. ومثل هذا الترجيح والاتباعية غاظ الإمام أبا محمد ابن حزم حتى قال بمرارة عن بعض الأتباع: «ولو استطاعت هذه الطائفة

المستأخرة أن يدعوا لصحابهم أنه تكلم في المهد ما تأخروا عن ذلك»^(٢٩) .
والإفادة التاسعة : أن التقرب إلى الله بمحبة هؤلاء الأئمة، والترحم عليهم لا يقتضي تجريد الصواب في اجتهادهم، ولا ضرورة تقليد من استطاع الاجتهاد.
والإفادة العاشرة : أن المذهب الظاهري مذهب مستقل، وليس تابعاً لإمام

بعينه، بل هو منهج فكري لغوي نصي .

والإفادة الحادية عشرة : ليس المذهب الظاهري كالمذهب الزيدي ؛ لأنه خلاف فقهي لا عقيدي، وإنما هو كمذهب أحمد بن حنبل والشافعي رحم الله الجميع .
والإفادة الثانية عشرة : يتبع المذهب الظاهري السني والأشعري - قبل رجوع الأشعري عن مذهبه؛ لأن الإمام أبا الحسن رحمه الله رجع عن معتقده في الصفات - والمعتزلي مثل غيره من المذاهب المتبوعة .

والإفادة الثالثة عشرة : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ليس ذا مذهب فقهي، ولكنه مجتهد في مذهب الإمام أحمد في دائرة أصوله، ناصر لها، وإن خالفه في بعض المسائل.. بل خالف الأئمة الأربعة وتابع الظاهرية في مسائل كمسألة عدم قضاء من ترك الصلاة عمداً .

والإفادة الرابعة عشرة : المذهب الظاهري ليس مذهباً لغوياً ؛ ولكنه مذهب نصي شرعي بمقتضى فكري لغوي .. ومعنى أنه فكري أنه يفصل بين المعرفة الشرعية والمعرفة البشرية ؛ فالمعرفة الشرعية على التوقيف والاتباع إلا ما فوضه الشرع إلى العقل، والمعرفة البشرية أوسع دائرة في الحرية.. وميزة الشرع أنه عبودية لله، وليس حرية للشهوات والشبهات والآراء.. والظاهر بجناحيه الفكري واللغوي موجهٌ لتحرير مراد الشرع وتخليصه من الأوشاب البشرية،

أمرين لن تضلوا ما تمسكتن بهما: كتاب الله، وسنتي.. عضوا عليها بالنواجذ..
فأجل ما استعمل الطالب للعلم فيه بحثه، وأتعب فيه نفسه: ما ضمن له رسول
الله ﷺ عن الله تعالى: أنه لا يضل ما تمسك به.. وقد ألف علماء الإسلام في
ذلك تواليف كثيرة لا تحصى.. لكنها راجعة إلى خمسة أنواع:

الأول: من ألف في حديث رسول الله ﷺ خاصة، واشترط الصحة.

الثاني: من ألف فيه ولم يشترط صحة من ضعف، ووكّل ذلك إلى اجتهد
الناظر فيه.

الثالث: من ألف في حديث رسول الله ﷺ وفقه الصحابة والتابعين
وعلماء الأمصار.

الرابع: من ألف كذلك، وزاد التعرض للترجيح في الأقوال والاحتجاج
حسب ما ظهر له أنه الحق من غير تعرض منه لانتصار لمذهب إمام معين.

والخامس: من ألف كذلك إلا أنه جعل الاحتجاج والترجيح بحسب
الانتصار لمذهب إمام معين من الأئمة الأربعة الذين وقف أهل العصر عند
استكمال مذاهبهم؛ فأجل الأقسام الخمسة، وأفضلها الأول بلا شك؛ إذ هو
كلام رسول الله ﷺ خالصاً لم يشبه غيره.. والقسم الرابع أنفعها؛ لأنه يجمع
علومًا جمة، وتصرفاً في أفانين كثيرة.. وقد ألف الصدر الأول في هذا المقصد
تواليف ليست بذلك الطول كأبي الحارث محمد بن عبدالله بن أبي ذئب
القرشي، وأبي عبدالله سفيان بن سعيد الثوري، وأبي عبدالله مالك بن أنس
الأصبغي، وأبي عبدالرحمن عبدالله بن المبارك الخراساني، وأبي عبدالله محمد بن
إدريس الشافعي^(٣١)، وأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وأبي
يعقوب إسحاق ابن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المعروف بابن راهويه.. وأكثر ما

(٣١) قال أبو عبدالرحمن: بل كان الإمام الشافعي رحمه الله من المكثرين في التأليف.

وحكم المرتدين، وحكم الزنا، والقذف، وشرب الخمر، وذكر التعزير، والجامع؛ فحدثت أن الثقة أخبر عنه أنه : عهد إلى بنيه أن يكملوه على ما نهجه من كتابه الإيصال.. وكان له من الولد أبورافع الفضل، وأبواسامة يعقوب، وأبوسليمان المصعب، وغيرهم .. وكان الفضل أكبرهم سناً، وأجلهم قدراً؛ فانبرى لتكميله وتتميمه؛ فيئض مبيضة لم يخلصها، ولا رويت عنه بعد نظره فيها نظر تهذيب وتبصر^(٣٥) .. أدركته رحمه الله الوفاة، وحالت بينه وبين ما حاول من إتمام غرضه؛ لأنه استشهد في وقعة الزلافة .. فمن نسخ كتاب المجلى^(٣٦)؛ فأنتهى في نسخه إلى المسألة التي توفي الشيخ ولم يكملها، ولم يزد شيئاً، وقال : « ههنا أدركت الإمام الوفاة » : فهذه رواية أبي خالد يزيد بن العاص الأونبي الأندلسي^(٣٧) .. ومنها ما انتهى بها ناسخها إلى آخر زيادة أبي رافع الفضل، وهي رواية أبي عمر كوثر بن خلف بن كوثر^(٣٨)، وأبي الحسن شريح بن محمد بن شريح^(٣٩) بإجازة أبي محمد لهما؛ فتأملت هذه الزيادة، فوجدت فيها خللاً كثيراً؛

(٣٥) أي أنه لم يعد فيها نظره بتهذيب وتبصر .

(٣٦) في الأصل « فمن نسخ كتاب المجلى » .. ووردت المجلى بالجيم .

(٣٧) قال أبو عبد الرحمن : من ذرية سعد السعود بن أحمد بن هشام بن إدريس بن محمد بن سعيد بن سليمان بن عبد الواحد بن عفير الأموي المترجم في بقية السفر الرابع من الذيل والتكملة للمراكشي ص ١٨-١٩ ولأبيه العاص بيتان أوردهما المقرئ في نفح الطيب ٥٩٤/٣ وهو منسوب إلى أونة قرية غرب الأندلس توفي فيها أبو محمد ابن حزم رحمه الله .

(٣٨) لم أجد له الآن ترجمة مع أنني قمشت عنه بعض الإفادات منذ ثلاثين عاماً في وريقاتي المشتة .

(٣٩) روايته عن أبي محمد بالإجازة؛ لأنه ولد سنة ٤٥١ هـ وتوفي رحمه الله سنة ٥٣٩ هـ وهو آخر من روى عن أبي محمد، وهو أكثر من بث كتبه .

وأما ابن طاهر فهو أمير من بيت إمارة، وهو محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسن بن مصعب أبو العباس الخزاعي، وهو أمير بغداد أيام المتوكل، أديب مشارك في العلم الشرعي، جالس الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وله ترجمة حافلة في تاريخ بغداد ٥/ ٤١٨-٤٢٢، وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٩٩ قول ابن طاهر في الإمام أحمد رحمه الله تعالى :

أضحى ابن حنبل محنة مرضيةً وبحب أحمد يعرف المتسكُ
وإذا رأيت لأحمد متقصاً فاعلم بأن ستوره ستهتكُ

قال أبو عبد الرحمن : هذه جلالة النفوذ، وأما جلالة العلم والفقه في الدين فقد قال الإمام أبو محمد في الرسالة الباهرة ص ٤٧-٥٠ في معرض سياقه لأعلام الفقهاء : «وأحقهم بصفة الفقه داوود بن علي؛ لأنه لا يفارق السنن والإجماع أصلاً، ولا يقول برأيه البتة، ولا يقلد أحداً.. ثم أحمد بن حنبل وهو قليل الفتيا لشدة توقيه وتورعه على سعة علمه بالسنن وأقوال الصحابة والتابعين، ثم الشافعي؛ فإنه أول من انتقد الأقوال المختلطة وميز الفتاوى المختلفة، وميز السنة من غيابة الرأي، وعلم استخراج البرهان من غيضة الاستحسان، ونهى عن التعصب للمعلمين وعن الحمية للبدان، ودعا إلى اتباع صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ حيث كان؛ فالمؤمنون إخوة، وأكرمهم عند الله أتقاهم؛ وإنما فضل المرء بنفسه.. وأشار إلى كيف يأتي القرآن مع السنن، والخاص مع العام من الآي والسنن؛ فصار له بذلك فضل عظيم وسبق رفيع.. واستبان بهذه المناهج التي نهج دقة ذهنه، وقوة خاطره، وحدة فهمه وثقوبه.. ثم سلك أحمد رحمه الله هذه الطريق وأربى على الشافعي بكثرة استعماله للسنن الثابتة، وشدة ضبطه للروايات الصحاح.. ثم تلاهما داوود رحمه الله؛ فأكمل تلك الفضيلة، وتمم تلك الحسنة، وأوضح أن القرآن وكلام رسول الله ﷺ وأفعاله وإقراره وإجماع العلماء كلهم قد استوعبت هذه الوجوه جميع الشرائع ونوازل الأحكام كلها أولها عن آخرها، وأنه لا يشذ عنها شيء من أمور الدين أصلاً، وأن كل ما يسأل عنه السائلون فيه وجود حكمة فيها.. تبيان ونص لا يحتاج ولا يفتقر إلى قول أحد من الناس، وأن كل ذلك منصوب عليه باسمه، وحكمه محكم له غير ناقص ولا محذوف البيان، وأن الله تعالى لم يحوج

متفقهة الحنفيين أنه قال : أبو حنيفة كان أعلم بالقضاء من محمد ﷺ .. وذكر عن الربيع أنه قال : الشافعي لا يخطئ في واو ولا ألف .. وحدثني محمد بن يحيى بن غالب : عن الخليل بن أحمد البستي : أنه قال بعض الحنبلين : أحمد بن حنبل عظمة .

قال أبو محمد رحمه الله : وهذه الأقوال شنيعة، وبعضها كفر مجرد، وهو القول بأن أبا حنيفة أعلم بالقضاء من رسول الله ﷺ : وهذا كلام يغني إيراد عن تكلف الرد عليه بأكثر من أن نقول عن قائل هذا القول : عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين؛ فما يخرج هذا الكلام من قلب مسلم .

وأما الذي ذكروا عن ابن القاسم من قوله : « كفى بقول مالك حجة » فما هذا يصح عنه البتة؛ لأنه ضلالة عظيمة وقول شنيع، وإذا قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء / ١٦٥] فكيف يقول مسلم له مسكة عقل : إن قول أحد بعد النبي ﷺ حجة؟! وكذلك قوله : لو رأيت مالكا لاستعظمت مخالفته.. قال أبو محمد رحمه الله : فيا ليت شعري لو رأى هذا المخاطب مالكا ماذا كان يرى فيه مما يستعظم مخالفته : أترأه كان يرى في يده عصا يقلبها حية، أو يراه يبرئ الأكمه والأبرص، أو يحيي الموتى، أو يراه يطعم النفر الكثير من الطعام اليسير، أو يراه ينبع الماء من بين أصابعه، أو يراه يشق القمر، أو يراه يأتي بكلام معجز؟!

هذه الأمور التي يستعظم من رآها مخالفة من رآها منه رؤية إنسان كسائر الناس ولا فرق : يفتي برأيه وحسب ما أذاه إليه اجتهداه؛ فيخطئ ويصيب كما فعل كل مفتٍ سواء سواء.. وما أرى هذا القول يصح أيضاً عن ابن القاسم؛ فإنه قول في نهاية الغثاثة والسقوط.. ولعمري لقد رأى مالكا سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وحامد بن زيد، والأوزاعي، والليث، وابن جريج، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن أبي سلمة.. ثم رآه أيضاً وكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك والوليد بن مسلم، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، والشافعي (وهؤلاء أئمة المسلمين في عصرهم) فما منهم أحد استعظم مخالفته، بل ما استحلوا متابعتة، ولا رضوا لأنفسهم تقليده، ولا الانتماء إلى مذهبه، ولا وقع لهم هذا

أنها أقل من خمسين سنة ؛ لأنه رحمته الله توفي سنة ست وخمسين وأربعمئة .
وأخبرني بعض حفدته وهو الفقيه أبو العباس بن أبي رافع : أنه توفي ابن
اثنتين ^(٧١) وسبعين سنة ؛ لأن مولده كان سنة أربع وثمانين وثلاثمئة آخر يوم
من شهر رمضان .. وتوفي آخر شعبان سنة ست وخمسين وأربعمئة .. مات ابن
اثنتين ^(٧٢) وسبعين، ووجدته قد قال في بعض رواياته : إنه قرأ بعض مصنفات
الحديث سنة إحدى وأربعمئة ولم يؤلف رحمته الله إلا بعد أن استكمل قراءة كتب
الحديث، واتسع في علم الظاهر؛ فما كان ذلك إلا عن تأييد من الله تبارك
وتعالى رضي الله عنه.. ووجدت الوزير الفقيه أبي رافع ابنه رحمه الله قال :
كتبت من خط أبي رحمته الله - وذكر تواريخ أعمامه وأبيه وأخيه وبني عمه وأخواته
وبنيه وبناته مواليدهم وتاريخ موت من مات منهم في حياته رحمته الله .. ثم قال - :
وُلدتُ أنا علي بن أحمد بن سعيد بن حزم قبل طلوع الشمس من يوم الأربعاء
آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمئة، وهو اليوم السابع من
نوفمبر .

وتاريخ والده ^(٧٣) الوزير أبي عمر رحمه الله في أول يوم الإثنين سنة سبع
وعشرين وثلاثمئة، ومات رحمه الله في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعمئة، وهو
رحمه الله ابن أربع وسبعين سنة وأربعة أشهر أو نحوها ^(٧٤) .. ومات الوزير الفقيه

العبارة: قول الفقيه الحاج رحمه الله [الله] وجمله من غير زيادة في المعنى ولا نقصان:
«فسبحان .. إلخ» ؛ فتكون « المعنى » الأولى زلة قلم، وما بين القوسين سقط سهواً .

(٧١) في الأصل: اثنتين .

(٧٢) في الأصل: اثنتين .

(٧٣) أي تاريخ ولادة والده .

(٧٤) لا يستقيم هذا مع ما حدده من تاريخ مولده ووفاته رحمه الله، بل يكون عمره
حيثئذ سبعة وسبعين عاماً .

أبو الوليد بن أبي أمية .. ذكر ابن عبد الملك أن سعد السعود ظاهري مصمم على القول بالظاهر .. ولد في منتصف ذي القعدة سنة ٥١٣ هـ، وتوفي بقرية برجلانة إحدى قرى لبلة بذي القعدة سنة ٥٨٨ هـ^(٨٧).

وقال أبو طالب عقيل بن عطية القضاعي المالكي [٦٠٨ هـ]: «وهذا الرجل قد غلت فيه طائفتان :

إحدهما : تُعظمه تعظيماً مفرطاً ؛ بحيث تقلده في جميع أقواله، ولا ترى مخالفته في شيء من مذهبه، وإذا ظهر لها في كلامه الخطأ البين، والوهم الصراح: لم تقبله، وأحالت بالوهم والخطأ على من يتعاطى الرد عليه^(٨٨)، أو على أنفسها بالعجز عن الانتصار لذلك القول المردود عليه .

والطائفة الثانية: تزري عليه، وتحط من قدره؛ حتى تعتقد: أن لا حسنة عنده؛ فإذا ظهر لها ما في قوله من الجودة، وتبين لها صحة ما ذهب إليه في أمر ما مما يتكلم عليه، أو يتمذهب به : لم تقبله أيضاً، واعتقدت فيمن يبين ذلك ويتكلم فيه : أنه على مذهبه الذي يتحله.. وقد يكون في هذه الطائفة : من لا يفهم قوله، ولا يدري معناه، لكن يكرهه تقليداً، ويستصوب قول من يرد عليه في الجملة .. وكلتا الطائفتين مخطئة فيما توهمته عليه : من الإحسان المجرد، أو من الإساءة المجردة .. بل هو واحد من العلماء، ومن يقصد الحق عند نفسه فيما يراه، ويؤثر العدل فيما يظنه ويتحراه ؛ فتارة يخطئ، وتارة يُصيب ؛ فإذا أصاب فقوله سامق جداً، وإذا أخطأ فقوله نازل جداً؛ لأن أكثر أقواله إنما تأخذ بالطرفين، وغيره من العلماء قد يكون صوابه قريباً من خطئه .. أعني أنه إذا أصاب يكون صوابه قريب المرام ليس فيه ذلك الغموض، وإذا أخطأ لم يكن في

(٨٧) أطال المراكشي ترجمته في الذيل والتكملة / بقية السفر الرابع ص ١٨-٢١ رقم ٤٤.

(٨٨) قال أبو عبد الرحمن : أي على العالم الذي يرد عليه ابن حزم.

الوجه لا في الموضع الذي نقله منه - يعني معجم ابن الأعرابي - ولا في غيره، وإنما غلط فيه أبو محمد ابن حزم؛ فتبعه هو في ذلك غير ناظر فيه ولا ناقل له من موضعه، وإنما أورد منه ما وقع في كتاب المحلى . ويرى ابن القطان أن عبدالحق قلّد ابن حزم في هذا الحديث .. إلا أن ابن حزم كما يغلب على ظن ابن القطان لم يجعله حديثاً ولا صححه ولا التفت إليه، وإنما أوردته في كتابه على أنه أثر كما هو في الأصل لا على أنه خبر؛ ولذلك لم يبال بإسناده؛ فتصحف على الرواة أو النساخ، فجعل حديثاً عن النبي ﷺ .. قال ابن القطان : وقد عهد أبو محمد ابن حزم يكتب الآثار في كتابه من غير التفات إلى أسانيدھا؛ لأنه لا يحتج بها، وإنما يوردها مؤنساً لخصومه مما وضع من مذهب، وهو لا يستوحش بعدمھا، ولأنه قد عهدهم يقبلونها كذلك، وبعضهم يراها حججاً؛ فهو يوردها لنفسه باعتبار معتقدھم فيها ولا يعتمدھا .. وقد يردها على خصومه لضعفھا؛ لأنھم يوردونها لا كما يوردها هو لنفسه، بل محتجين بها؛ فلذلك تسلط لهم علیھا النقد»^(٩٧).

وابن القطان يأخذ على عبدالحق أنه لم يرجع إلى مصنف حماد بن سلمة، وإنما رجع إلى نقل ابن حزم عنه في كتاب الإعراب^(٩٨)، وابن القطان ينقل عن ابن حزم كثيراً : تارة يحتج بكلامه^(٩٩)، وتارة يدافع عنه^(١٠٠)، وتارة يتعقبه^(١٠١) .. ويذكر ابن القطان أن أبا محمد عبدالحق يقلد ابن حزم في النقل

(٩٧) الوهم والإيهام ٦٤/١ .

(٩٨) الوهم والإيهام ١١٥/١ .

(٩٩) انظر الوهم والإيهام ١٠٩/٢ ب و ٢٣٥/٢ ب و ٢٤٤/٢ ب و ٢٠٢/١ .

(١٠٠) انظر الوهم والإيهام ١٠٢/٢ ب و ١٠٣/١ أ و ٦٠/١ ب و ٢١/١ .

(١٠١) انظر الوهم والإيهام ١١٠/٢ أ و ١٥٧/٢ أ حول جهل ابن حزم للترمذي، و ٢/

١٦٩ أ و ١٨١/٢ و ١٨٦/٢ ب و ٢٠٩/٢ ب و ٢٢٣/٢ ب، وهنا أحال إلى الزكاة من

اقتنيت معظمها بحمد الله .

وقال الذهبي عن كتاب ابن القطان: « طالعت كتاب ابن القطان المسمى بالوهم والإيهام الذي وضعه على الأحكام الكبرى [قال أبو عبد الرحمن : بل الوسطى] لعبدالحق يدل على حفظه وقوة فهمه، لكنه تعنت في أحوال رجال؛ فما أنصف بحيث أخذ يلين هشام بن عروة ونحوه»^(١٠٩).. وقال ابن ناصر الدين: ولا بن القطان فيه وهم كثير تعقبه عليه أبو عبد الله الذهبي في مصنف كبير^(١١٠) .

قال أبو عبد الرحمن : ردُّ الذهبي مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ولم يتيسر لي الاطلاع عليه بعد.. والجديد في نصوص ابن القطان هذه ما يلي :

١- الإفادة باختصار ابن حزم لكتاب الساجي وكونه نبيلاً .

٢- مكاتبة الحميدي لابن حزم من بغداد .

٣- لفت النظر إلى منهج ابن حزم في الاستدلال بالحديث على أصل المخالف.

٤- أن ابن القطان اطلع على الإيصال مباشرة، وابن القطان مقارب عصره لعصر ابن خليل العبدري؛ وعلى هذا يحمل كلام ابن خليل على أنه شخصياً لم يطلع على الإيصال كاملاً لا على أنه عُدِم في وقت مبكر .

٥- نص ابن القطان هنا مع ما خبرته من إدمان المطالعة لكتب ابن حزم يدل على أن أبا محمد في بداية أمره فرغ نفسه لتمحيص أسانيد الأحاديث بكتابه الخصال وشرحه الإيصال؛ حيث اعتمد على المصنفات الهائلة التي أحصيتها في تخريجي لفهرسة ابن حزم، ثم بعد ذلك اعتمد على الإيصال اعتماداً نهائياً في

(١٠٩) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٠٧ .

(١١٠) الأعلام الزركلي ٥/ ١٥٢ .

مثلما تثبت الحقائق في الذهن وفي خارج لها مستقر

وابن حزم لم يرضَ بهذا المعنى^(١١٦) بل قال :

لئن أصبحت مرتحلاً بجسمي فقلبي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكلیم^(١١٧) «

وقال : « وقد أوردت في ترجمة الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن

سيد الناس ما أنشدنيه بسنده إلى الحافظ أبي محمد ابن حزم وهي أبيات أولها:

من عذيري من أناس جهلوا ثم ظنوا أنهم أهل النظر

قال الحميدي أنشدته قول أبي نواس :

عَرْضَنُ للذي تحب بحبٍ ثم دعه يروضه إبليس

فقال :

أبن وجه قول الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق

سيؤنسه رفقا فينسى نفاره كما نسي القيد الموثق مطلق^(١١٨) «

وقال الصفدي: «أنشدني والدي أبو عمرو محمد قال : أنشدني والدي أبو بكر

محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس رحمهما الله تعالى

(١١٦) قال أبو عبد الرحمن : يعني أن أبا محمد رحمه الله لم يسقط ضرورة المعاينة بالبصر، ويتعلل بأن العين تفقد من تهوى .

(١١٧) الغيث المسجم ٣٢٧/٢، وقد ذكر الصفدي طوق الحمامة لابن حزم في الغيث المسجم ٤٣٠/١ .

(١١٨) قال أبو عبد الرحمن : سمى أبو محمد بهذا المعنى؛ فلم يرضَ رياضة إبليس للحبيب، بل أحال ذلك إلى الطبع؛ بأن الحب يستألفه فينسى الهروب من الحب، ويقيد الحب كما نسي القيد مطلق .

قال: أنشدني الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج النباتي قال : أنشدني أبو الوليد سعد السعوي بن أحمد بن هشام قال: أنشدني الحافظ أبو العباس أحمد ابن عبد الملك أنشدنا أبو أسامة يعقوب قال: أنشدني والذي الفقيه الحافظ أبو محمد ابن حزم لنفسه :

من عذيري من أناس جهلوا ثم ظنوا أنهم أهل النظر
ركبوا الرأي عناداً فسروا في ظلام تاه فيه من غبر
وطريق الرشدهج مهيع مثلما أبصرت في الأفق القمر
وهو الإجماع والنص الذي ليس إلا في كتاب أو أثر^(١١٩)

قال أبو عبد الرحمن: البيتان: « تجنب صديقاً مثلما .. إلخ » نسبهما ابن سعيد لأبي عمرو ابن حزم النحوي^(١٢٠) وهو أحمد بن محمد المذحجي .. وأبو محمد ابن حزم الفارسي جده من أمه، وإسناد الصفدي - إن لم يكن فيه سقط ولا تصحيف - يدل على أن الأبيات لأبي عبد الله محمد بن علي، ويدل على أن لأبي محمد ولداً اسمه محمد وكنيته أبو عبد الله .. على أن هذا الإسناد يحتاج مني مستقبلاً إن شاء الله زيادة تمحيص .

والقصيدة العينية التي ذكر منها الصفدي بيتاً لم أجد أحداً أشار إليها قبله، والبيتان : « إن كنت كاذبة الذي .. إلخ » ليسا لأبي محمد ابن حزم، وقد ذكرهما محمد أمين بن فضل الله المحبي [١٠٦١-١١١١هـ]؛ فقال: عن عبد الحفيظ عبد الله المهدي (- ١٠٧٧هـ): « وله في الأدب مرتبة عليّة؛ وأشعاره بمثابة علمه واضحة جليلة ؛ فمما بلغني من شعره - وقد أنشد بعضهم

(١١٩) الوافي ١/ ٣١١ .

(١٢٠) رايات المبرزين ص ٧٤ .

ونقض عُرَاه؛ اتباعاً لهواه .. ويقول : إن جميع ما يأتي به ويصنفه من اللغو الذي يجب الإعراض عنه والهجر الذي يجب أن لا يسمع عنه .. وهو يذكر من مؤلفات ابن حزم : (الفصل) و(الإحكام) و(التوقيف على شارع النجاة)، و(كتاب القواعد) على مذهبه و(المطارد) [كذا] .. ومما شنع فيه على ابن حزم تشنيعاً شديداً ما ذكره في (الفصل) من إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمل التأويل، وهي الناحية التي أشاد الدارسون قديماً وحديثاً بعقريّة ابن حزم فيها، وسبقه إليها .. وشنع كذلك تشنيعاً فظيعاً بالبرنامج الرائع الذي قدمه ابن حزم لتعليم الأطفال في كل من (مراتب العلوم) و(التوقيف على شارع النجاة) الداعي إلى الجمع في الدراسة بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية والرياضية والأدبية .. ومما شنع فيه على ابن حزم تشنيعاً كبيراً قوله بكروية الأرض^(١٢٨) غير ذلك مما لا يتسع المجال الآن لإيراد شيء منه هنا .

وتوجد من هذا الكتاب بقايا أوراق لا أول لها ولا آخر، ولا صلة بينها في مكتبة القرويين بفاس أوقفني عليها محافظها الزميل الأستاذ العابد الفاسي، واستطعت التعرف إلى حقيقتها بعد دراسة طويلة .

قال أبو عبد الرحمن : هذا نموذج ممن ذكرهم ابن خليل العبدري فيما سلف من كلامه، وأبو الأصبغ من مقلّدة المالكية، وله كتاب عن النوازل صورته من المغرب وهو مجرد نقول، ثم قام الدكتور المحامي رشيد النعيمي بتحقيقه . وحسبك من جهل هذا المدّعي للفقّه أنه ينكر على ابن حزم سبقه فيما أيده

(١٢٨) قال أبو عبد الرحمن : هذا التشنيع على حق ظاهر من النصوص قال به السلف أكبر برهان على جهل هذا المؤلف، وأنه من « الخشارة » التي ذكرها أبو محمد كما مر في التعليقة رقم (١٢٥) .

العلم الحديث من كروية الأرض، وحسبك من جهله أنه يستخف بكتاب ابن حزم في الملل والنحل وهو أحد كتب قلائل يفخر بها التراث العربي والإسلامي في هذه العصر .

وكتاب المطار في اللهو والدعابة من تأليف ابن حزم أول من ذكره أبو الأصبغ، وقد رأيت نصوصاً كثيرة منقولة عن ابن حزم في الجذوة كلها من باب اللهو والدعابة .

وقال علي بن محمد بن علي الرعيني من أعيان القرن السابع: « أخبرني [يعني أبا الحسين محمد بن زرقون] قراءة عليه وسماعاً من لفظه قال : حدثني الحافظ أبو بكر الجذ قال : حدثني أبو الحسن بن الأخضر قال : حدثني أبو الحجاج الأعم : أنه لقي ابن حزم، فقال له مكان التحية : يا أستاذ: هل تجمع العرب فاعلاً على فعلاً؟ .. قال : فقلت له : نعم.. وأخذت أورد له أمثلة على جهة البيان .. فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب وهو يقول : أرحمني من سبحان .. أرحمني من سبحان ! .

قلت : وقد ذكر نحو هذا عنه القاضي أبو الأصبغ بن سهل في كتابه الذي سماه بالتنبيه على شذوذ ابن حزم، وقال : إن الأديب أبا بكر محمد بن أغلب المرسى حدثه : أن الأعم ذكر ذلك في نحو ما تقدم.. إلا أنه قال : إن ابن حزم قال له عندما أجابه عن سؤاله : فما يمنع أن يكون سبحان جمع سابح ؟ .. قال الأعم : فعجبت من جهله اهـ^(١٢٩) .. وذكر عن شيخه أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور البصري : أنه قرأ على المحدث أبي العباس أحمد بن سلمة الأنصاري كتاب حجة الوداع لابن حزم^(١٣٠)، وذكر أنه قرأ على أبي الحسين محمد بن القاضي

(١٢٩) الإيراد ص ٣٣-٣٤ .

(١٣٠) الإيراد ص ١٧٢ .

أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون كثيراً من تأليفه الكبير الذي سماه (المعلّى في الرد على المحلى والمجلى) (١٣١).

قال أبو عبد الرحمن : ابن زرقون ولد سنة ٥٣٩ هـ وتوفي سنة ٦٢١ هـ، وقد ذكر ابن الآبار أنه متعصب للمذهب المالكي، وشيخه في هذه الرواية أبو بكر محمد بن عبدالله بن يحيى بن فرج بن الجدد سمع أبا الحسن بن الأخضر وبجث عليه سيويه وأخذ عنه اللغات .. توفي سنة ٥٨٦ هـ، وأبو الحسن بن الأخضر هو علي بن عبد الرحمن بن مهدي التنوخي من أهل إشبيلية توفي سنة ٥١٤ هـ، وأبو الحجاج الأعلم هو يوسف بن عيسى بن سليمان النحوي ولد سنة ٤١٠ هـ وتوفي سنة ٤٧٦ هـ بإشبيلية وقد كان رحل إلى قرطبة سنة ٤٣٣ هـ وأقام بها مدة.. ولعل هذا الخبر بهذا الإسناد مما ساقه ابن زرقون في كتابه المعلّى الذي رد به على المحلى لأبي محمد ابن حزم، وعندي يقين بأن هذا الخبر متحل مكدوب لعدة اعتبارات :

أولها : أن موردي الخبر خصمان لابن حزم متعصبان عليه، وأبو الأصبع الذي كفر ابن حزم وفسقه لا آمن أن يكذب عليه .

وثانيها : ربما صحّ الخبر عن الأعلم إلا أنه نحوي أديب، وهؤلاء غير رجال الشريعة.. ربما ملّحوا مجالسهم ببعض الكذبات تباهاً بالعلم، وافتخاراً بقاء ابن حزم وتجهيله .. وعلى أي حال فليس الأدباء كالعلماء في الثقة .

وثالثها : أن الخبر متناقض يكذب بعضه بعضاً؛ فرواية أبي الأصبع أن ابن حزم قال للأعلم عندما أجابه عن سؤاله : فما يمنع أن يكون سبحان جمع سابح؟.. وفي رواية ابن زرقون : فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب وهو يقول : أرحمني من سبحان ! .. فأى هاتين الكذبتين نصدق؟! .

وقال الحافظ شمس الدين الذهبي [٧٤٨ هـ] : « قال اليسع بن حزم الغافقي - وذكر أبا محمد فقال - : « أما محفوظه فبحرٌ عجاج وماء ثجاج .. يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاجة ألفاف النعم في رياض الهمم .. لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهل دين، وألف الملل والنحل، وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير^(١٤٠) .. أنشد المعتمد فأجاد، وقصد بلنسية وبها المظفر أحد الأطواد .. وحدثني عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي بلنسية وهو يدرس المذهب إذا^(١٤١) بأبي محمد ابن حزم يسمعوننا ويتعجب، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب فيها فاعترض في ذلك، فقال له بعض الحضار : هذا العلم ليس من متحلاتك .. فقام وقعد، ودخل منزله فعكف، ووكف منه وابل فما كف، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة، وقال فيها : أنا أتبع الحق وأجتهد، ولا أتقيد بمذهب^(١٤٢) » .

قال أبو عبد الرحمن: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركمانى ولد سنة ٦٧٣ هـ المحدث المؤرخ المشهور الثقة وله عناية بالإمام أبي محمد، وقد اختصر المحلى وسماه (المستحلى) .

واليسع بن حزم الذي نقل عنه الذهبي ترجمة أبي محمد مؤرخ غير موثوق به مجازف في أقواله كما ذكر ذلك الذهبي في كتابه: ميزان الاعتدال، وفي ترجمة اليسع : أن أبا محمد أنشد المعتمد .. والظاهر أن هذا تحريف ؛ لأنه ليس في

(١٤٠) في طبعة سعيد : السرير .

(١٤١) في طبعة سعيد : إذ .

(١٤٢) سير أعلام النبلاء .

بمسائله؛ فولي القضاء بها؛ فأخذت عنه مسائله لأجل قضائه ورياسته، واشتهر أمره واشتهرت مسائل مالك بالأندلس؛ لدخول عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى وغيرهم من رؤساء الأندلس وقضاتها؛ فاشتهر عنهم أخذها والتمذهب بها، وإنما كان ذلك لرياستهم فترك الناس السنن واتبعوه.

وذكر الباجي أنه اجتمع مع ابن حزم بميورقة، وكانت بينهما مطالبات واحتجاجات آل أمرها على ما قال إلى إبطال مذهبه، وذكر أن أخاه إبراهيم بن خلف الباجي لقي ابن حزم يوماً فقال له: ما قرأت على أخيك؟.. فقال له^(١٤٧) كثيراً أقرأ عليه.. فقال: ألا اختصر لك العلم فيقرئك ما تنتفع به في الزمن القريب في سنة أو أقل؟.. فقال له: لو صح هذا الفعل؟.. فقال: غير ينفعك بذلك في سنة؟.. فقال: أنا أحب ذلك.. فقال له: أو في شهر.. فقال ذلك أشهى إلي.. فقال: أو في جمعة أو دفعة.. فقال: هذا أشهى إلي من كل شيء.. فقال له: إذا وردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب؛ فإن وجدتها فيه وإلا فاعرضها على السنة، فإن وجدت ذلك فيها وإلا فاعرضها على مسائل الإجماع، فإن وجدتها وإلا فالأصل الإباحة فافعلها.

قلت له: ما أرشدتني إليه يفتقر إلى عمر طويل وعلم جليل؛ لأنه يفتقر لمعرفة الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه ومؤوله وظاهره ومنصوصه ومطلقه وعمومه إلى غير ذلك من أحكامه، ويفتقر أيضاً إلى حفظ الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها ومسندها ومرسلها ومعضلها وتأويله وتاريخ المتقدم والمتأخر منها إلى غير ذلك، ويفتقر إلى معرفة مسائل الإجماع وتتبعها في جميع أقطار الإسلام وقل من يحيط بهذا.. قال الباجي: وبالجمله فإن الرجل ليس معه قوة علم، ولا تضلع في الاحتجاج، ولكن إمامه بالأمور الفارغة

(١٤٧) في الأصل المطبوع: لي.

ومُبْتَدِي^(١٤٨) الطلبة ؛ فإذا سئل عن مسألة يقول لمن حضره أو السائل : ما قلت أنت فيها، وما ظهر لك ؟ .. ولا يزال يستميل حتى ينطق فيها بشيء من رأيه ؛ فيجود فعله ويستحسن رأيه ويقول : قولك فيها خير من قول مالك، ويُزَيَّن له ذلك، ويشككه في نفسه حتى يصير يرى رأي نفسه ويتعاضم، ويقع في مالك وغيره من العلماء.. وقد سلطت عليه في شيء كثير؛ فحمل أمره، واستجهله أهل الفروع بالأندلس، ولم يزل في خمول وعدم اعتناء في مذهبه^(١٤٩).

وكثر أهل الشورى والفقهاء والوثائق بالأندلس حتى خرج الموحدون وأخذوا مراكش من لمتونة حاضرة ملكهم؛ فوجدوا فيها كتب فقه كثيرة فاستصعبوها وباعوها من الشواشين^(١٥٠) وغيرهم، وتقدموا إلى الفقهاء الفرعيين، ولما أن اطمأنت بالأمير عبدالمؤمن الدار جمع الفقهاء :- إما لاختبار مذهبهم، أو^(١٥١) حملهم على مذهب ابن حزم - ؛ فحكى عن أبي عبدالله ابن زرقون جامع الاستذكار والمتقى .. قال : كنت فيمن جمعهم ؛ فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبوجعفر ابن عطية ؛ فخطب خطبة مختصرة، ثم رد رأسه إلى الفقهاء، وقال لهم :

(١٤٨) قال أبو عبد الرحمن : هذا أسلوب أعجمي غير مفهوم !.

(١٤٩) قال أبو عبد الرحمن : إن صح هذا الكلام فهو كلام الباجي في خصمه.. وأبو الوليد الباجي رحمه الله على جلالة في حفظ مسائل الفروع والأصول على مذهب المالكية لا يسبح في بحر أبي محمد ابن حزم رحمه الله.. وأخذه رحمه الله برواية مختصرة تمسك بها على أن الرسول ﷺ كتب يوم الحديبية دليل على عدم تمكنه في الحديث، وأنه إذا أراد أن يجتهد خارج المذهب ضاع.. وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ ، وأهل العلم درجات رحم الله جميعهم .

(١٥٠) لم أجد لها معنى يليق بالسياق لا من تاج العروس ، ولا من تكملة المعاجم لدوزي إلا إن كان المراد أبناء الإمام والماليك ؛ فهذا معنى للشواشين كما في تكملة المعاجم.

(١٥١) الصواب وإما ، وانظر التعليقة (٥٨) .

بلغ سيدنا أن قوماً من أولي العلم تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وصاروا يحكمون بين الناس ويفتون بهذه الفروع والمسائل التي لا أصل لها في الشرع - أو كلاماً هذا معناه - ، وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم ونظر في شيء من الفروع والمسائل عوقب العقاب الشديد وفعل به كذا وكذا .. وسكت، ورفع الأمير عبدالمؤمن رأسه إليه، وأشار عليه بالجلوس، فجلس، وقال سمعتم ما قال؟ .. فقال له الطلبة: نعم.. قال: وسمعنا أن عند القوم تأليفاً من هذه الفروع يسمونه الكتاب (يعني المدونة)، وأنهم إذا قال لهم قائل مسألة من السنة ولم تكن فيه أو مخالفة له قالوا: ما هي في الكتاب، أو ما هو مذهب الكتاب.. وليس ثم كتاب يرجع إليه إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.. قال: وأرعد وأبرق في التخويف والتحذير من النظر في هذه الكتب والفقهاء سكوت، ثم قال: ومن العجب أنهم يقولون أقوالاً برأيهم وليست من الشرع - أو قال: من الدين - ؛ فيقولون: من طرأ عليه خلل في صلاته يعيد في الوقت.. فيتحكمون في دين الله تعالى؛ لأنها إما صحيحة فلا إعادة أو^(١٥٢) باطلة فيعيد أبداً؛ فيا ليت شعري من أين أخذوه؟ .. فصمت القوم ولم يجبه أحد لحدة الأمر والإنكار .

قال ابن زرقون: فحملتني الغيرة^(١٥٣) على أن تكلمت وتلطفت في الكلام لهم، وأن الله تعالى أحيا بهم الحق وأهله، وأمات الباطل وأهله، وذكر نحو هذا المنحى.. وقلت: إن أذن لي في الجواب تكلمت وأذيت نصيحتي وهي السنة؛

(١٥٢) الصواب: وإما ، وانظر التعليقة رقم (٥٨) .. والخلل إن كان يُجبر بالسهو جُبر، وإن كان يجبره السهو فالإعادة واجبة قبل خروج الوقت .

(١٥٣) قال أبو عبد الرحمن: الكلام كلام خصم ابن حزم، وشاهده من نفسه !!.. وهذه القصة التي لا يخمل نقل مثلها ينبغي أن يكون لها مصدر غير ابن زرقون.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿ [سورة النساء / ٥٩]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النجم / ١٠٢] إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿ [سورة النجم / ١٠٢] .

ولما تبين بما ذكرنا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع نظرنا فيه ؛ فوجدناه يوجب طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به، ووجدناه تعالى يقول : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النجم / ٣] ؛ فصح لنا بهذا أن الوحي ينقسم إلى قسمين : أحدهما : متلو، مؤلف ، معجز النظام ، لا تصح الصلاة إلا بقراءة شيء منه؛ قد تلقاه الكافة عن مثلهم إلى رسول الله ﷺ .. وهو القرآن .

والثاني : وحي مروي منقول عنه مؤلف تأليفاً [غير^(٥)] معجز النظام ولا متلو^(٦) في الصلاة لكنه مقروء، وطاعته كطاعة القسم الأول واجبة [ولا فرق كما قال تعالى^(٧) : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [سورة النساء / ٥٩] وكان القسم الثاني الذي هو الأخبار [ثاني^(٨)] الأصول الثلاثة التي ألزمت طاعتها في الآية الجامعة لجميع شرائع الإسلام^(٩) أولها عن آخرها، وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ ؛ فهذا أصل، و ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ؛ فهذا ثان، و ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ؛ فهذا ثالث، وهو الإجماع؛ فقد صح لنا بنص القرآن أن الأخبار

(٥) قال أبو عبد الرحمن : ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق، وهو نص الإمام أبي محمد في الإحكام ٩٧/١ / دار الآفاق الجديدة .

(٦) في الأصول : متلو

(٧) ما بين المعقوفين محو في صورة الأصل، وما أثبتته بين المعقوفين اجتهاد واستثناس بما ورد في الإحكام ٩٧/١ .

(٨) ما بين المعقوفتين محو في صورة الأصل، وأثبتته اجتهاداً، واستثناساً بالسياق وبما ورد في الإحكام ٩٧/١ .

(٩) في صورة الأصل «البيان» وما أثبتته هو الصحيح، وفي الإحكام ٩٧/١ : لجميع الشرائع.

وهذا النص عندنا في صدر الرسالة، لكن التسمية غريبة جداً، ولم أرَ من ذكر لابن حزم رسالة أو كتاباً بهذا الاسم؛ فلعلَّ الإمام الذهبي رحمه الله وقف على الرسالة ولم يعرف اسمها فاجتهد في استخراج اسمها من قول ابن حزم في صدرها: « والذي ذكرتم من وجوب الإرشاد للمسترشد، ولزوم البيان لمن سأل » فنعم!.. ومن هذا، ومما تقدم يتضح للقارئ الكريم أن نسبة هذه الرسالة لابن حزم رحمه الله نسبة أكيدة لا شك فيها.. خاصة أن كثيراً من مسائله العلمية تتفق مع ما ذكره في كتبه المشهورة كالمحلى بالآثار وغيره .

وهذه الرسالة غير ما ذكر الذهبي^(٢٢) لابن حزم باسم « التلخيص والتلخيص في المسائل النظرية»، وذكره ياقوت الحموي^(٢٣)، والمقري^(٢٤)؛ وزادا: «.. وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث ».. وهذا يوضح موضوع الكتاب، فهو في المسائل النظرية، ورسالتنا في المسائل العملية^(٢٥).

قال أبو عبد الرحمن: وعن الظاهرية أقرّر أنها قسمان: ظاهر نصي، وظاهر عقلي.. وإنما الظاهر النصي في الكلام المركب، وهو ما ثبت بيقين أو رجحان أنه مراد المتكلم سواء أكان الخطاب بحقيقة الوضع اللغوي، أم كان بسعة المجاز اللغوي أو الأدبي.. وليس الظاهر ما يتبادر للمتسامح من كونه خلاف الجلي الواضح، بل الظاهر ما دل عليه الخطاب بوجوه الدلالة المعروفة في كلام العرب سواء أكان المدلول جلياً واضحاً، أم كان خفياً لا يظهر إلا باستنباط واجتهاد.. وغير الظاهر ما لا تدل عليه اللغة في خطاب المتكلم كجعل شرب اللبن رضاعاً.. والظاهر العقلي ليس هو كل احتمال يتصوره العقل، بل هو ما لا يحتمل العقل

(٢٢) في « سير أعلام النبلاء » ٩٩/١٨، و « تذكرة الحفاظ » ١٠١٦/٣ [عبدالحق].

(٢٣) في « معجم الأدباء » ٢٣٥/١٢ [عبدالحق].

(٢٤) في « نفح الطيب » ٧٧/٢ [عبدالحق].

(٢٥) التلخيص لوجه التلخيص [مقدمة عبدالحق] ص ٦٢-٦٣.

غيره.. والإمام ابن حزم رحمه الله له خلاف للظاهر شنيع في الصفات وغيرها، وذلك من الخطأ في التطبيق لا في التأصيل مثل عدم إمضائه حكم الظهار إلا بتكرار المظاهرة التفاتاً إلى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [سورة المجادلة / ٣]، فالآية عن العود إلى ما ظاهر منه .. أي العودة إلى الجماع، وليست الآية عن إعادة ما قال من الظهار^(٢٦) ؛ لأن الله سبحانه لم يقل : «حتى يُعيدوا ما قالوا»؛ فهذا فهم من أبي محمد لدلول الآية على أنه الظاهر، وليس هذا الظاهر ؛ فذلك خطأ منه في التطبيق وليس خطأ في التأصيل الجبار الموجب الأخذ بالظاهر .. ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ﴾ [سورة الإسراء / ٢٣] حمله على المعنى الحقيقي الذي هو حكاية للصوت الخارج من الفم^(٢٧)، والظاهر حقيقة

(٢٦) قال أبو محمد في المحلى ١٢٢/١١ - دار إحياء التراث العربي بيروت : « ومن قال - من حر، أو عبد - لامرأته، أو لأمته التي يحل له وطؤها : (أنت عليّ كظهر أمي) أو قال لها : (أنت مني بظهر أمي، أو كظهر أمي، أو مثل ظهر أمي) : فلا شيء عليه، ولا يحرم بذلك وطؤها عليه حتى يكون القول بذلك مرة أخرى .. وقال ص ١٢٤ : « لا يكون العود للقول إلا بتكريره .. لا يعقل في اللغة غير هذا » .

قال أبو عبد الرحمن : العود للشيء الذي قالوه، وليس إعادة لقول قالوه .

(٢٧) قال أبو محمد في الإحكام ٥٧/٧ : « لو لم يرد غير هذه اللفظة لما كان فيها تحريم ضربهما ولا قتلها، ولما كان فيها إلا تحريم قول «أف» فقط .. ولكن لما قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يُلْقُونَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ اقتضت هذه الألفاظ من الإحسان .. إلخ كلامه .

وقال رحمه الله تعالى : « ومن البرهان الضروري على أن نهى الله تعالى عن أن يقول المرء لوالديه « أف » ليس نهياً عن الضرب ولا عن القتل ولا عما عدا الأف : أن من حدث عن إنسان قُتل آخر أو ضربه حتى كسر أضلاعه وقذفه بالحدود وبصق في

وموجزه : أن الشرع لا يُعرف إلا بلغة العرب التي نزل بها الشرع، وما صح نقله من مرادٍ لرسول الله ﷺ عُرف بغير اللغة من إيمائه وسكوته ؛ فيؤخذ بالاصطلاح الشرعي إن وُجد، فإن لم يوجد أخذ بالمعنى المجازي الغالب الاستعمال، فإن لم يوجد أخذ بالمعنى الحقيقي الوضعي .. هذا إذا تجرد الخطاب من قرائن ودلالات سياق وإحالة إلى معهود شرعي بنص آخر .. وأن مراد الشرع هو ما يتيقنه العقل أو يرجحه عند تعدد الاحتمالات .

والإفادة الخامسة عشرة : المذهب الظاهري أثبأ لرجحان الفكر بواسطة الخطاب الشرعي .. ومعنى هذا أنه ليس مذهب إمام بعينه كالشافعي أو مالك .

والإفادة السادسة عشرة : بناءً على ما سبق فثم فرق بين الظاهر والظاهرية؛ فالظاهر اتباع للنص بمنهج فكري في نظريتي المعرفة، والظاهرية اتباع لإمام أخذ بالظاهر وربما أخطأ في التطبيق كالأخذ بالحرفية والغفلة عن معقول النص ومعهوده .. قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى عن الإمام داود بن علي الظاهري بعد الثناء على علمه واجتهاده : « لكن له بالتنبيه على ما ذكرنا منزلة رفيعة، ومحلة عالية؛ ويستحق بذلك التقدم في الفقه، وليس ذلك بموجب تقليده ؛ لما ذكرنا من أنه لم يُعصم من الخطأ بعد رسول الله ﷺ أحدٌ من الناس، ولا يحل أن يُقلد من يخطئ وإن أصاب في كثير»^(٣٠) .. وكلام أبي محمد رحمه الله في مثل هذا كثير .

والإفادة السابعة عشرة : المذهب الظاهري هو الأصل، وهو مذهب الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قبل وجود المذاهب، ولا يزال هو المذهب لأهل السنة والجماعة في العقائد؛ ولهذا ألف السمنودي كتابه « سعادة الدارين في الرد على الظاهرية ومقلداتهم من الوهابية » ؛ فاعتبر مذهب أهل السنة

(٣٠) الرسالة الباهرة ص ٥٠ .

والجماعة الذي قال به الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تابعاً للقول بالظاهر.. بل وُجد من الصحابة رضي الله عنهم من تمسك بالحرفية كما في صلاة العصر في بني قريظة .

والإفادة الثامنة عشرة : لما وُجدت المذاهب وتحزبت تجرد لإحياء الأصل من الأخذ بالظاهر الإمام داود بن علي وهو معاصر للإمام أحمد رحمه الله، وما زال المذهب في عز حتى كان هو المذهب الرسمي للدولة في خراسان والعراق؛ فلما ضعفت دولته آخر القرن الرابع بزغ نجمه في الأندلس على يد منذر بن سعيد وابن مفلت ثم الإمام أبي محمد ابن حزم الذي بقيت جملة من مؤلفاته، ثم كانت له دولة في القرن السادس وما بعده بالأندلس .. وفي فقه الظاهرية أخطاء شنيعة، ولكن مذهب الأخذ بالظاهر منها براء .

والإفادة التاسعة عشرة : الإضافة إلى المذهب نسبة لا كنية .. إنما الكنية بأبي فلان وأم فلان .

والإفادة العشرون : في القديم يُنسب الفقيه إلى مذهبه من قبل غيره، ومن قبل نفسه؛ لتمييز للطلاب والمناصب وكتب التراجم؛ لأن المذاهب مؤهلات علمية .

والإفادة الحادية والعشرون - وهي مسك الختام - : الانتساب للظاهر بالذات مظهر فخر واعتزاز أعظم من الإضافة إلى القبيلة ؛ لأنه اتباعية مجتهد وفق منهج فكري معرفي يملكه، وليس تقويعاً في مذهب إمام بعينه، والله المستعان .

قال أبو عبد الرحمن : ولقد أعفى المحقق الفاضل كتابه من تعريف الإمام ابن حزم طلباً للاختصار، ولكنني أضيف نصوصاً نفيسة مليحة غفل عنها مترجمو ابن حزم، وأضيف نصوصاً حفل بها المترجمون له ولم يحفلوا بمحاكمتها ؛ فمن الأول قول ابن خليل العبدري رحمه الله في تكملته للمحلى : « وغير خافٍ عن ذي تعلق يسير بنصوص الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال : « تركت فيكم

تجد كلام هؤلاء في كتب المؤلفين بعدهم حاشا الإمام مالك والشافعي رحمهما الله، وقد يوجد لغيرهما لكنه قليل بالنسبة إليهما رضوان الله عليهم أجمعين .. ثم أتى بعد هؤلاء قوم آخرون ؛ فأطالوا التواليف ؛ لما شحنا فيها من الأدلة بالآي والسنن ؛ إذ الفقه مستخرج عنهما .. وبسطوا من الاحتجاج والترجيح كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي عبدالله محمد بن نصر المروزي، وأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وأبي بكر محمد بن المنذر النيسابوري، وأبي سليمان داوود بن علي بن خلف الأصبهاني، وابنه أبي بكر محمد بن داوود، وأبي الحسن عبدالله بن أحمد بن المغلس، وأبي محمد قاسم بن محمد الأندلسي المعروف بصاحب الوثائق، وأبي الحكم منذر بن سعيد البلوطي، وأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الفارسي^(٣٢) .. وهو أكثر من ذكرنا استيفاء لأقوال المخالف، وبسطاً لأدلتهم ؛ لأنه رحمه الله أتى بعد حدوث الفتن، وما ابتلي به بعض الناس من الحن في نصرة من لا يغني عنه من الله شيئاً، ونسأل الله العافية .. وأحسن كتبه كتاب الإيصال إلا أنه عُدِمَ اليوم عُدْماً لا يتأتى وجوده كاملاً أبداً، وبعده كتاب المحلى في شرح كتاب المجلى أيضاً، وكلاهما^(٣٣) موجود كثير غير أنه أدركته رحمه الله الوفاة وقد انتهت فيه إلى أول كتاب الدماء والديات والقصاص^(٣٤)، ولم يشرح منه إلا ست مسائل وبعض المسألة السابعة، وبقي عليه : تتميم المسألة المذكورة، وبقية كتاب الدماء، والديات، والقصاص والقسامة، وقتال أهل البغي، وحكم المحاريين، وحد السرقة، وجحد العارية،

(٣٢) قال أبو عبد الرحمن : فوق هؤلاء كلهم في هذا الجانب الإمام الحافظ أبو عمر ابن عبد البر، ولم يذكره .

(٣٣) أي المجلى والمحلى .

(٣٤) وردت « والقصاص » مكررة في الأصل .

وذلك أن الإمام أبا محمد رتب كتاب المحلى على كتاب المجلى ؛ فيقول : كتاب كذا.. مسألة كذا.. وينقل من المجلى مذهبه في تلك المسألة كما هو في آخر كلامه فيها، ثم يقول : برهان ذلك .. إلى آخر البرهان من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو النظر الراجع إلى ذلك عنده .. فإن كانت المسألة لا يعرف فيها خلافاً فقد تمت، ويذكر المسألة التي تليها.. وإن كان فيها خلاف ذكره، وذكر استدلال المخالف واعتراضه، ورجح بحسب ما ظهر له، ويذكر من قال بقوله من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار [رضي الله عنهم] .. ثم مر في ترتيب المحلى كذلك لا يخالف ترتيب المجلى ؛ لأنه شرحه حتى انتهى إلى حيث قُدر له .. والذي صنعه أبورافع الفضل في هذه الزيادة : أنه أخذ أبواباً على ترتيب الإيصال؛ فكمل بها المحلى، ولم يتعرض إلى المجلى، ولا نقل منه كلمة واحدة .. وليته لما نقل من الإيصال ما نقل اعتمد عليه ولم يحذف منه إلا التكرار^(٤٠) والتطويل؛ بل حذف مسائل كثيرة ؛ فينقل منه باباً ويترك منه باباً .. وربما كان الذي يحذفه أكثر فائدة فيما هو بسبيله من الذي يثبت، والضرورة لما يحذفه أشد.. وربما طال عليه الباب الذي ينقل منه ؛ فيقطع من فصوله ما فائدة الباب فيه .. وربما أثبت في الباب كلاماً لبعض الناس وحذف الرد عليه، أو أثبت الرد عليه وحذف أصل الكلام، وقد يثبت في بعض المسائل أقوال الناس ويحذف القولة

(٤٠) في الأصل : « التكرار »، وعدلت في الهامش بكلمة التكرير.. قال شيخنا أحمد يوسف القادري : « كرر فعل مصدره، القياسي تكريراً وتكراراً بفتح التاء، وهو مصدر.. وبكسر التاء وهو اسم؛ إذن تكريراً وتكراراً من كرر الشيء » .. قال أبو عبد الرحمن : المراد في السياق الاسم لما تكرر؛ فالتكرير أليق وإن كانت التكرار صحيحة.. والتكرار بفتح التاء وكسرها كلاهما للمبالغة، وليست بفتح التاء مصدراً، بل هي تعمل عمل المصدر، وقد حققت في غير هذا الموضع أن مصدر الفعل واحد لا غير، وما زاد على ذلك فقد عدّه النحاة مصدراً لنيابته عنه في العمل .

التي اعتمد عليها أبوه .. إلى غير ذلك من الإخلال الكثير الذي لا ينبغي معه لتلك الزيادة أن تثبت، ولا أن تعد شيئاً مغنياً بالنسبة إلى مراد المصنف .. ولما ألفت الزيادة هكذا، ووقع إليّ من كتاب الإيصال جملة كثيرة فيها موضع الحاجة : رأيت أن أكمله على ترتيبه ووضعه إن شاء الله تعالى ؛ حتى إذا رآه القارئ الناقد لم يَرِ فرقاً بينه وبين ما ابتداء به أبو محمد إلا فيما قدمته في ذكر الإسناد فقط ؛ وذلك أني أذكر المسألة التي وقف فيها الإمام أبو محمد؛ فاتم منها ما غادره، ثم أرجع إلى كتاب المجلى فأنقل المسألة التي تليها، وأذكر البرهان عليها منقولاً من كتاب الإيصال سواء .. أنقله على ما هو عليه، ثم أنقل مسألة مسألة كذلك من كتاب المجلى لا أتعدى ترتيبه، وأذكر البرهان عليه من الإيصال حيث وقع، ثم أذكر الخلاف فيها إن وُجد، والاحتجاج والاعتراض والترجيح حتى كأنه هو الذي تُممه»^(٤١) .

وقال ابن خليل أيضاً : « والإمام أبو محمد قد تكلم فيه أقوام من الجهال، ونسبوه إلى أشياء هم أحق بها، والله حسيبهم ومسائلهم عليها، وقد أربى بعض المتأخرين في سوء الثناء^(٤٢) عليه حتى نسب إلى معتقده سوءاً^(٤٣) هو بما نسبته إلى أبي محمد رحمة الله عليه أليق .. وربما كذبوا عليه في أشياء نسبوها إليه إفكاً وزوراً^(٤٤)، ثم إنهم لعنوه عليها إفكاً منهم وغروراً وبهتاناً ومحض تقوّل ولا

(٤١) قال أبو عبد الرحمن : نص ابن خليل هذا من مقدمة المورد الأحلى .

(٤٢) قال أبو عبد الرحمن : الثناء يكون بالخير والشر .. ومن هؤلاء المتأخرين الذين يشملهم ما ذكره ابن خليل : القاضي ابن العربي، وعيسى بن سهل ...، وهؤلاء يردّون بوجهة نظر أشعرية .

(٤٣) قال أبو عبد الرحمن : نعم له أخطاء في المعتقد عن اجتهاد لم يوفق فيه .

(٤٤) كما في رده على العتقي، وكما في رسالته الرد على الهاتف من بعد، وكما في الأكاذيب التي نقلها ابن زرقون.

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وقد أثنى عليه جلة^(٤٥) من أهل الفضل والخير والدين من علماء المشرق والمغرب، وليس هذا موضع البسط لأقوالهم.. وبالجملة فإنه إذا تأمل العاقل النبيه السالم الفطرة من التعصب والهوى حال الإمام أبي محمد رحمه الله، وتأمل أقوال الناس فيه : وجدهم على قسمين : إما جاهل مفرط الجهل يسبه ولا يدري ما كان عليه من الشدة في الدين، والمحافضة على اتباع السنن، والحض على ذلك ؛ فهو يسبه ولا يدري ما يلزمه في دينه من ثلب امرئ مسلم من أكابر أهل العلم قد لحق بربه.. وإما رجل رقيق الحياء، قليل الدين.. ينال منه تعصباً لأهل مذهبه أو غير ذلك ؛ لينال من دنياء ما أحب .. قد باع^(٤٦) آخرته بدنياه قد ضمنت له ما أصابه منها لم يكن ليخطئه .. قد رضي على ما عند الله تعالى بعاجل زخرف هذا المتاع الفاني .. باع^(٤٧) لذلك آخرته بدنياه قد ضمنت له ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه منها لم يكن ليصيبه .. قد اعتاض عما عند الله تعالى بأن يقال عنه : إنه ناصر لمذهب كذا، مصمم عليه.. وهو يدري أن ما ناله من أبي محمد رحمة الله عليه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً إن كان مصداقاً بالشرع.. إنا لله وإنا إليه راجعون^(٤٨).

وقال ابن خليل : « إن أكثر من أثنى على أبي محمد رحمه الله، وخذه^(٤٩) في شيء : فهو أنه أطلق لسانه وقلمه على قوم من المتعصبين بالثلب والسب والنيل منهم .. وكأنهم رأوا أن هذا خطأ، وأنه أتى ما لا يجوز فعله، وعيب عليه ذلك

(٤٥) قال في تاج العروس ١٤/ ١١٣ : « قوم جلة بالكسر : عظماء سادة خيار ذوو أخطار..

قال الصاغانى : جمع جليل مثل صبي وصبيبة » .

(٤٦) في الأصل : « أباع » والفعل متعد بلا همزة.. وهذه العبارات من كلام أبي محمد نفسه رحمه الله في بعض كتبه.

(٤٧) في الأصل « أباع » .

(٤٨) من مقدمة المورد الأحلى .

(٤٩) هكذا في الأصل، والصواب : وآخذه .

في تواليفه .. فأقول : إنه ليس خطأ، بل هو قرينة إلى الله تعالى، وجهاد فيه، وزين للتأليف.. وبيان ذلك بخلاف^(٥٠) لما وقع بين السلف الصالح رضي الله عنهم.. لم يقدح بسببه بعضهم في بعض، ولا عادى به أحد أحداً؛ بل قد يوجد بين الرجلين منهم الصحبة المؤكدة والخلاف في مسائل كثيرة؛ لأنهم لا يراعون^(٥١) في ذلك إلا وجه الله تعالى، ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا طلب العلم سبباً لنيل دنياهم، ومراقبة يبلغون بها من التروؤس مناهم؛ فتعصب قوم لقوم عمل الدولة في ذلك العصر بقولهم^(٥٢) (إمّا وفاقاً لمن تقدم، أو استحساناً منهم لذلك)؛ فبالغ هؤلاء في التعصب لأقوالهم.. وليت شعري لو لم يكن الأمر كذلك ما الذي أوجب اندثار مذهب الأوزاعي وكان الناس عليه برهة من الدهر، واشتهر حتى بلغ الأندلس.. وكذلك سفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، والليث بن سعد.. سيما^(٥٣) والشافعي رحمه الله يقول : كان الليث إماماً أضاعه أصحابه.. إلى غيرهم ممن لهم في العلم والإمامة منصب مثلهم^(٥٤) ممن قال بفتاواهم أهل عصر ثم لم يقيم أهل الدول مثلهم^(٥٥)؛ فتركت

(٥٠) هكذا في الأصل، والكلمة قلقة في السياق، ولعل الصواب « بالخلاف » وتكون « لما » بفتح اللام وتشديد الميم.

(٥١) في الأصل: فللا يراعون.

(٥٢) لم أضع النقطتين فوق بعض (:)؛ لأن ما بعد ذلك ليس مقول القول، وكان ينبغي وضعهما؛ لما بعدهما من تفريع، ولكنني تركتها خوفاً من اللبس بأن بعدهما مقول القول، واستعصت عن ذلك بالقوسين.

(٥٣) قال أبو عبد الرحمن : الأفضح « ولا سيما ».

(٥٤) في الأصل : كههم .. والإصلاح من الهامش.

(٥٥) أي لم تقم بالأخذ بمذاهبهم، وفي الأصل « بعد »، ثم وضع مكانها في الهامش « مثلهم » وفوق الميم « خ ».

لذلك^(٥٦).. وقد كان الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني مدة من الزمن لم يبرز لإلقاء العلم ظاهراً، ثم انبرى له الموفق العباسي حامياً؛ فجلس لتدريس العلم ما شاء الله أن يجلس حتى أخذ بقوله جماعة من العلماء، وتفقه عليه أمم.. قد ذكر هذا الإمام جمال الدين أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي رحمه الله من الفقهاء^(٥٧).. إلى غير ذلك مما ذكره عنه أهل الأثر؛ فإنه معلوم

(٥٦) أي ترك الناس المذهب لهم، وبقيت مذاهب من أخذت الدول بأقوالهم؛ فكانت هي المذهب الرسمي للدولة؛ وقد أطال الإمام أبو محمد ابن حزم في بيان ذلك في الرسالة الباهرة، وفي الأحكام.

(٥٧) قال أبو عبد الرحمن: تكلم الإمام أبو محمد ابن حزم عن جلالة النفوذ بالجاه والسلطة - وهما بخلاف جلالة العلم -؛ فقال في الرسالة الباهرة ص ٢٨-٢٩: « وكذلك كان محمد بن عبد الله بن طاهر، وإسماعيل بن إسحاق أمير بغداد وقاضيهما [الأول الأمير، والثاني القاضي] في بعض أيام داود [يعني داود بن علي الظاهري] أجل في الدنيا من داود؛ لأن أمرهما كان عليه نافذاً قبل أن يحميه الموفق من إسماعيل؛ إذ وقع بينهما ما قد عرف.

قال أبو محمد رحمه الله: وهذه جلالة ليست فضيلة ».

قال أبو عبد الرحمن: هذه جلالة سلطة ونفوذ، وكان إسماعيل رحمه الله متعصباً لمذهب مالك، وتسلب على عدد من العلماء لا بقوة حجته بل بقوة سلطانه، ومن هؤلاء الإمام داود كما ذكر ذلك القاضي عياض رحمه الله في ترتيب المدارك ١٧٩/٢، فإنه أخرج داود من بغداد إلى البصرة؛ لعدم قوله بالقياس البشري في دين الله.. والموفق الذي حماه من أنبل خلفاء بني العباس المتأخرين، وهو أبو أحمد الموفق طلحة (أو محمد) ابن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد.. قال الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء ١٦٩/١٣: « فكان الموفق بيده العقد والحل لا يبرم أمر دونه، وكان من أعلامهم رتبة، وأنبلهم رأياً، وأشجعهم قلباً، وأوفرهم هبة، وأجودهم كفاً - وكان محبوباً إلى الرعية.. ولا سيما لما استؤصل الخبيث طاغوت الزنج على يديه؛ فإنه لم يزل يحاربه حتى ظفر به؛ ولذا لقبه الناس الناصر لدين الله ».

بينهم، ثم بعدُ لم يَقم أحد من أهل الدول بمذهبه؛ فكانت سبيله كسبيل من ذكرنا من قدمنا من ذوي المذاهب ومنصب الاجتهاد في الفتوى في الشريعة؛ فكان ذلك التعصب قبيحاً: إما شرعاً، أو^(٥٨) عقلاً.. وربما وضع بعضهم الحديث على رسول الله ﷺ نصرة لقوله في مذهبه^(٥٩)؛ فليتنبأوا (في جانب مبالغته في

مع القرآن والسنة والإجماع إلى تكلف قياس ولا تعسف رأي ولا حكم بظن ولا إحداث لشرع.. ثم أتبع هذه الجملة تفصيلها ووفى وعده في تفسيرها، وبين ذلك بياناً كافياً؛ فكانت له بذلك درجة موفورة، وذخيرة [من] الله عز وجل [خصه] بها، وذخرها له.. لحق بها المتقدمين، وأربى على المتأخرين، وأحيا ما دثر من أعمال الصحابة والتابعين لهم رضي الله عنهم أجمعين في اتباع السنن والقرآن فقط، وأبان فساد الخطب في الدين من الأخذ [بما] في مسألة من القرآن وترك ما فيها من صحيح الحديث.. وفي أختها بصحيح الحديث وترك ما فيها من القرآن، وفي أختها بتقليد قائل وترك ما فيها من القرآن والسنة، وفي أختها بقياس وترك ما فيها من قرآن وحديث وقول قائل، وفي أختها بما استحسنته المفتي وترك ما فيها نص أو قياس أو قول سلف؛ فاقتنى الأجر في أهل الحق والإنصاف، وأقام الحق على الشذوذ والخلاف، وحوى بذلك خصل الجواد إذا استولى على الأمد، وحصل على قصب السبق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. وإن كان قد أخطأ في كثير من فتاويه، فالعصمة من الخطأ ليست لأحد من الناس بعد رسول الله ﷺ.

(٥٨) الدلالة إما على التفصيل وما في حكمه من تفريع تخيير أو إباحة أو شك صار الأسلوب العربي المبين تكريها؛ لأنها عدل ما قبلها، ولهذا لا تقوم «أو» مقامها، وإن دلت على بعض هذه المعاني؛ لأنه لا يُبتدأ بها تفصيل الكلام فتحتاج إلى تكرير بخلاف «إما».. وإن بعد هذا المعنى عن الذهن فموجز القول: إنه لا يصح في اللغة سوى تكرير إما.

(٥٩) قال الإمام أبو محمد ابن حزم في الرسالة الباهرة ص ١٨-١٩: «وروي عن بعض

تعصبه لنصرة قول من لم يُغن عنه من الله شيئاً) مقعده من النار.. وأول من يلغنه على ذلك كله مَنْ نصر أقواله، وبرأ منه يوم القيامة.. وربما يكون في بعض المواضع ردة عن الإسلام، ونعوذ بالله من الخذلان؛ وذلك أنهم يعترضون على كتاب الله تعالى، وعلى الصحيح عندهم من سنن رسول الله ﷺ بما رُؤا عليه من أنواع الاعتراضات؛ فيحرفون الكلم عن مواضعه قصداً، ويمزقون كتاب الله تعالى تمزيقاً بارداً، ويتحكمون فيه تحكماً فاسداً، ويعرضونهما على كلام صاحبهم^(٦٠)؛ فما وافقه منها أخذوا به، وما لم يوافقه منها نبذوه بالعراء، وقابلوا بالرد والتحريف والحمد لله^(٦١).

وقال ابن خليل أيضاً: وأما تخطئته من خطأ من السلف الصالح رضي الله عنهم: فليست التخطئة نيلاً منهم، ولا يعدّها نيلاً منهم إلا جاهل أحق؛ وذلك

الأمر المجهول الذي يحكونه عن ابن القاسم، ولعلهم كذبوا عليه... إلخ.. انظر الرسالة الباهرة إلى نهاية ص ٢٤، وقال ص ٢٤-٢٥ عن الإمام مالك رحمه الله: «وقد ذكروا أنه المراد بعالم المدينة في الحديث المروي من طريق أبي الزبير (هو مالك)، وهذا تقول منهم على رسول الله ﷺ بغير علم، ومن قطع على مراده ﷺ فقد كذب عليه؛ فليتبوأ مقعده من النار.. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء / ٣٦].. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [سورة النجم / ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئاً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور / ١٥]؛ فمن قطع بأن عالم المدينة المذكور في ذلك الحديث لو صح هو مالك بن أنس فقد قفا ما لا علم له به، وقال ما ليس به علم، واتبع الظن.. والظن أكذب الحديث. وقال على رسول الله ﷺ بظنه فصار كاذباً عليه.. نعوذ بالله من الضلال».

(٦٠) كلمة «صاحبهم» إضافة من الهامش.

(٦١) عن مقدمة المورد الأحلى.

أنه قد علمنا قطعاً أن كل أحد يخطئ ويصيب إلا أنبياء الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين.. وإذا قال قائل عمن أخطأ في شيء (وهو ممن يجوز عليه الخطأ): «قد أخطأ» فهذا إخبار بحق وصدق، ولو قال غير ذلك لكان كاذباً.. والمصانعة والمداهنة في الحق لم يرض بها السلف، ولا كل مصمم في الدين، ولا يموت بها الحق أبداً، ولم يأمر بها الله تعالى ولا رسوله ﷺ^(٦٢).

وقال ابن خليل: «قال الإمام أبو محمد رحمهما الله: ولسنا نرضى عمن يغضب لنا.. إنما نرضى عمن يغضب للحق، ولا نسر بمن ينصر أقوالنا.. إنما نسر بمن ينصر الحق حيث هو.. ولا يجهل علينا جاهل فيظن أننا متبعون مذهب الإمام أبي سليمان داود بن علي.. إنما^(٦٣) أبو سليمان شيخ من شيوخنا، ومعلم من معلمينا^(٦٤).. إن أصاب الحق فنحن معه اتباعاً للحق، وإن أخطأ اعتذرنا له، واتبعنا الحق حيث فهمناه، وبالله تعالى التوفيق.. قال محمد بن خليل: وكذلك أقول: لا يجهل علي جاهل فيظن أنني متبع للإمام أبي محمد.. أبو محمد شيخ من شيوخي، ومعلم من معلمي: إن أصاب الحق فأنا معه اتباعاً للحق، وإن لا فأنا مع الحق حيث فهمته بحسب ما يوفقي الله تعالى له وينعم به علي»^(٦٥).

قال أبو عبد الرحمن: وهكذا يقول أبو عبد الرحمن؛ لأن الظاهر ابتغاء مدلول شرعي وليس اقتراحاً بشرياً، فالتمذهب للأصول التي يعرف بها مراد الله يقيناً لا رجحاناً؛ فيكون الظاهر ما أظهره البرهان، فالتمذهب لمسؤولية العلم والفكر لا للأشخاص.

(٦٢) عن مقدمة المورد الأحلى

(٦٣) زيادة من هامش الأصل.

(٦٤) في الأصل: معلمي.. والإصلاح من هامش الأصل.

(٦٥) عن مقدمة المورد الأحلى.

ومن تلك النصوص تعليقة ابن حزم الحفيد، وقد وجدتها بآخر كتاب الإحكام في الجزء الثاني المخطوط بمكتبة ابن يوسف بمراكش، وهذا نصها : «انتسخته من نسخة كتبت من خط الفقيه أبي محمد علي بن الوزير أبي رافع بن الوزير الفقيه الإمام الحافظ أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مؤلفه ^(٦٦) تاريخها شهر سنة ثلاث وخسمائة.. قال أبو خالد يزيد بن العاصي بن سعيد بن سعود ^(٦٧) وجدت بخط الفقيه الحاج أبي أسامة رحمه الله يقول : أخبرني الفقيه الإمام الحاج الطرشي ^(٦٨) رحمه [الله].. قال : جلست أنا والفقيه أبوسليمان أخوك رحمه الله على تواليف الشيخ أبيك رحمته الله كلها مع المختصين من أصحابه، وأحصينا المدة التي يمكن نسخ جميعها لناسخ تكون صناعته ^(٦٩) لا يفتر عن النسخ إلا في وقت وضوء وصلاة وأخذ غذاء وما أشبه ذلك ؛ فوجدنا مدة ذلك ثمانين سنة بعد التقصّي لذلك والاجتهاد أيضاً للناسخ على ما تقدم من القول مع اجتهاده، وكذلك بعد أن يكون من أهل الصناعة مشهوراً .. قال يزيد بن سعود بعد قول الفقيه الحاج رحمه [الله]، وجملته ^(٧٠) : فسبحان من أيده بمعونته على النسخ والتأليف في مدة أغلب ظني

(٦٦) في الأصل علامة لحق إلى الهامش الأيمن، ولم يدون اللحق.

(٦٧) بعد هذا علامة لحق في الأصل إلى أعلى، ولم يدون اللحق، والمؤكد أن اللحق إثبات محذوف هو « سعد » ؛ لتكون العبارة : سعد السعود .

(٦٨) هكذا في الأصل، والراجع - كما سيأتي - أنه الطرطوشي رحمه الله، وما بين المعقوفين ضرورة سياق .

(٦٩) هكذا في الأصل، والعبارة غير تامة، أو لعلها إحالة إلى ضرورة فهم السياق، والمعنى : تكون المدة صناعته في النسخ .

(٧٠) هكذا في الأصل، والعبارة غير تامة.. ولعل الصحة : أن سعد السعود علق على كلام الطرطوشي ؛ فقال - بلا زيادة ولا نقصان - : « فسبحان .. إلخ » .. وعلى هذا تكون

ابنه رحمته ابن اثنتين وسبعين سنة غير شهر، وهو علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد (هذا هو أخو معاوية بن أبي سفيان.. ويزيد هذا هو المعروف بيزيد الخير؛ فيزيد هذا هو مولى يزيد الفارسي جد الوزير.. ورأيت في شعر الوزير أن يزيد الفارسي جده^(٧٥) كان من ولد متوجهة ملك فارس، وهذا قد ذكر في ترجمته رحمته) ابن أبي سفيان : صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن مناف .. والداخل منهم هو خلف.. ترك^(٧٦) بقريتين بمنى ليشم ومثيلش من إقليم أونة بكورة لبلة، وكان من جند حصص.. ولَدَ خلف صالحاً، وأسود .. فبنو أسود في نزالة جدهم متيلش لم يرحلوا عنها، وبنو صالح بمنى ليشم ومنهم بنو حزم المذكور، وبالله تعالى التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم» .

قال أبو عبد الرحمن : يلي هذا النص مباشرة نص قصيدة ابن حزم الدالية في أصول الفقه.. رواها أبو الوليد سعد السعود أحمد بن عفير.. قال : أنشدنيها الفتح .. إلخ .. قال أبو عبد الرحمن : وقد أوردت هذه القصيدة محققة في المجلد الثاني من كتابي الذخيرة من المصنفات الصغيرة، وصاحب النص هذا هو

(٧٥) وذلك هو قوله رحمه الله تعالى :

سما بي ساسان ودارا وبعدهم

قريش العلى أعياصها والعنابس

فما أخرت حرباً مراتباً سؤددى

ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس

(٧٦) لعل « ترك » رمزاً اختصاري بمعنى خلف عقباً بالقريتين .

أبو محمد علي بن الوزير أبي رافع الفضل بن الوزير أبي محمد علي بن الوزير أحمد بن سعيد ابن حزم ؛ فالإمام أبو محمد ابن حزم هو جده مباشرة .. ترجم له ابن الأبار؛ فقال : « يكنى أبا محمد .. روى عن أبيه : عن أبي رافع .. روى عنه ابنه أبو عمر أحمد بن علي .. أفادنيه بعض أصحابنا »^(٧٧)، وإنما رأيته يقول في ترجمته لابنه أبي عمر أحمد ابن علي : روى عن أبيه، ولأبيه علي رواية عن أبيه أبي رافع الفضل، وهو مذكور في باب^(٧٨) .. وقال ابن عبد الملك : علي بن الفضل بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي أبو محمد روى عن أبيه أبي رافع، وروى عن أبي عمر أحمد بن علي .. قال أبو عبد الرحمن : أبو عمر هذا هو ابنه كما نص على ذلك ابن الأبار، ولكن وجد بهامش إحدى نسخ كتاب ابن عبد الملك : إنه علي بن الفضل بن الحكم المرواني القرطبي أبو الحسن المعاهد .. أخذ عنه ابن مسدي، وتوفي سنة ٦٣٠ هـ، أو في حدودها رحمه الله^(٧٩) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا وهم من المهمش لسبيين :

أولهما : أن الذي ذكره ابن عبد الملك يكنى أبا عمر، وهو ابنه كما قال ابن الأبار، وأما الذي وجد بهامش إحدى نسخ كتاب ابن عبد الملك فكنيته أبو الحسن. وثانيهما: أن أبا الحسن هذا توفي عام ٦٣٠؛ وإذن فلم يدرك أبا محمد علي بن الفضل .

ولم أجد ذكراً لأبي خالد يزيد بن العاصي بن سعيد بن سعود، وإنما وجدت شعراً أورده المقرئ لأبي يزيد بن العاصي من المروانيين^(٨٠)، وأبو خالد يزيد بن

(٧٧) التكملة لكتاب الصلة ٣ / ١٨٠ رقم ٤٢٨ .

(٧٨) التكملة ١ / ٥١ رقم ١٥٢ .

(٧٩) الذيل والتكملة القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٦٣ .

(٨٠) انظر نفح الطيب ٣ / ٥٩٤ .

العاصي من المروانيين؛ لأن جده سعد السعود منهم، فهو سعد السعود بن أحمد ابن هشام بن إدريس بن محمد بن سعيد بن سليمان بن عبدالواحد بن عفير الأموي^(٨١).

والحاج أبوبكر الطرشي هكذا ورد رسمه بالمخطوط؛ فكان من المحتمل أنه مصحف عن (البطروشي) وهو أحمد بن عبدالرحمن.. أخذ كتب ابن حزم عن ابنه أبي رافع أسامة بن علي ابن حزم الظاهري^(٨٢) إلا أن هذا كنيته أبو جعفر وذاك كنيته أبوبكر، ومن المحتمل - وهو الأرجح - أن يكون مصحفاً عن (الطرطوشي)، وهو أبوبكر محمد بن الوليد الفهري (ابن أبي رندقة).. ولد سنة ٤٥١ هـ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ، ومات سنة ٥٢٠ هـ.. قال المقرئ عن الطرطوشي: إنه قرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم بمدينة أشبيلية^(٨٣).

قال أبو عبدالرحمن: هذا بعيد؛ لأن عمر الطرطوشي يوم مات ابن حزم أقل من ست سنين، ثم إن أبا محمد قضى السنوات الأخيرة من حياته ببلد أجداده وليس بأشبيلية.

وأبو العباس بن أبي رافع هو الفتح بن أبي رافع الفضل بن الإمام أبي محمد بن حزم.. روى عن عمه أبي سليمان مصعب بن أبي محمد^(٨٤)، وأبو سليمان بن أبي محمد هو المصعب بن علي بن أبي محمد ابن أحمد بن حزم.. قال ابن الأبار: سمع من والده، ومن أبي مروان الطبري في شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ، وأبي

(٨١) انظر: الذيل والتكملة / بقية السفر الرابع ص ٨-١٩.

(٨٢) انظر: معجم البلدان ١/ ٤٤٧.

(٨٣) نفح الطيب ٢/ ٨٨، وأزهار الرياض / ١٦٢.

(٨٤) التكملة لابن الأبار ٤/ ٥٩ رقم ١٦٠، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة للمراكشي / السفر الخامس / القسم الثاني ص ٥٢٩ / رقم ١٠١٨.

الحسن بن سيده.. حدث عنه بمختصر العين للزبيدي، وكان على سنن سلفه من طلب العلم وحمله.. حدث عنه ابن أخيه أبو العباس الفتح بن أبي رافع الفضل، وأبو الحسن بن الخضر.. وغلط ابن الدباغ في اسمه فجعله داود، وإنما هو المصعب.. قرأت اسمه وكنيته بخط أبي الأصبغ السمانى المقرئ رحمه الله، ويحدث الفتح المذكور عنه بكتاب المناسك من تأليف أبيه^(٨٥).. وأبو أسامة بن أبي محمد هو يعقوب بن علي بن أبي محمد بن أحمد بن حزم.. قال ابن بشكوال: « من أهل قرطبة يكنى أبا أسامة .. روى عن أبيه، وعن أبي عمر ابن عبد البر إجازة، وحج وأدى الفريضة، وكان من أهل النباهة والاستقامة من بيت علم وجلالة، ذاكرني به أبو جعفر الفقيه، وقال لي : وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسة، ومولده سنة أربعين وأربعمئة^(٨٦) ».

قال أبو عبد الرحمن : وفي هذا النص (الذي نقلته من آخر نسخة الجزء الثاني من الإحكام) زيادة فائدة جديدة عن مؤلف أو ضميمة كتبها أبو محمد عن (تواريخ أعمامه، وأبيه، وأخيه، وبني عمه، وأخواته، وبنيه، وبناته : مواليدهم، وتاريخ موت من مات منهم في حياته).. وفي هذا النص إفادة جديدة بأن يزيد ابن أبي سفيان هو مولى يزيد الفارسي جد ابن حزم [رضي الله عنهم]، وفي هذا النص إفادة جديدة عن يزيد الفارسي، وأنه من ولد متوجهة ملك فارس، وأنه هو الداخل منهم إلى الأندلس، وأنه من جند حمص، وأن من ذريته بني أسود في متيلش، وأن بني صالح بمنى ليشم .. وسعد السعود الأموي ذكرت سلسلة نسبه.. يُعرف بأبي الوليد بن عفير اللبلي.. من بنيه القاضي أبو أمية، ومن حفدته

(٨٥) التكملة ٢/ ١٨٧-١٨٨ رقم ٤٩٢.

(٨٦) الصلة في تاريخ الأندلس ومعلميهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ٢/ ٦٥١ رقم

ذلك الخطأ شذوذ ولا كبير تعسف .. وهذا الذي قلناه هو الإنصاف في جانب أبي محمد ابن حزم رحمه الله ، والاعتدال الذي ينبغي أن يُعتقد فيه ؛ فإنما ذكرنا الواجب في حقه - كان له ، أو عليه - اهـ^(٨٩) .

وقال أبوطالب عن « منذر بن سعيد » : « وهو رجل ظاهري مثل ابن حزم إلا أنه دونه في الشذوذ »^(٩٠) .

ويرى أبوطالب : أن رده على الحميدي رد على ابن حزم أصلاً ، ورد على الحميدي بالتبع ؛ لأن ابن حزم من أهل النظر في الجملة ، وأما الحميدي : فإنما هو من أصحاب الحديث ، وإن كان من أهل التحديق فيهم^(٩١) .

وقال أبوطالب : « أما بعد : فإن أحد الطلبة رعاهم الله عرض عليّ كتاباً صنّفه أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي رحمه الله في الموازنة يوم القيامة ، وتقسيم أهلها ، وترتيب الجزاء من الثواب والعقاب عليها .. وكان هذا الطالب المشار إليه معجباً بذلك الكتاب ، ومستحسناً لأغراضه ومولعاً بتقسيمه ، وزاده كلفاً به كون أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم رحمه الله قد رواه عن مؤلفه .. كذلك ذكر أبو محمد في برنامجه ، وذلك أنه قال : « كتاب جمعه صاحبنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي في مراتب الجزاء يوم القيامة على ما جاءت به نصوص القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ .. دقق فيه وقرطس ما شاء .. أخذته عنه لإحسانه فيه وجودة نظره في تقسيمه .. يكون بضع عشرة ورقة صغراً » .

قال أبو عبد الرحمن : لقد استخلصتُ من كتاب أبي طالب (تحرير المقال)

(٨٩) تحرير المقال ورقة ٢٥/ب-٢٦/١ .

(٩٠) تحرير المقال ورقة ٢٦/ب .

(٩١) تحرير المقال الورقة ٣/ب .

كتاب (مراتب الجزاء يوم القيامة) لأبي عبدالله الحميدي، وطبعته في بيروت، ثم أعدت نشره بالجزء الثاني من كتابي الذخيرة .. ونصوص أبي طالب هنا نادرة، وقد ذكر من مؤلفات ابن حزم كتابه البرنامج، ونقل نصاً منه، وفي هذا الكتاب ردُّ لأبي طالب على أبي محمد في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [سورة الانشقاق/ ٧] .. الآية، وقد فرغت من تحقيقه بحمد الله .

ومراتب الجزاء للحميدي رواه عنه شيخه ابن حزم في برنامجي، وأثنى عليه .. بيد أن الحميدي نفسه نص على أنه استفاد فكرة الكتاب من شيخه أبي محمد؛ لأنها جرت في مجلسه ونُبه عليها^(٩٢) .

قال أبو عبدالرحمن : لعل ما نُبه عليه أبو محمد في مجلسه هو إملاؤه لكتابه (مراتب أهل الحقائق في دار القرار) وهو ثلاث ورقات كتبها الحميدي من تقرير شيخه؛ فكانت أصلاً لكتابه مراتب الجزاء، وقد صورها الأستاذ محمد تاويت الطنجي من إحدى مكتبات تركيا، وهي مدرجة في رسالة التلخيص هذه.. وللمقارنة بين مراتب أهل الحقائق لابن حزم ومراتب الجزاء للحميدي نجد أبا طالب يقول عن نصوص لابن حزم في الفصل : « ولكن الحميدي زاد عليها بالتبع لها بإضافة ما يشاكلها حتى استحقها على ابن حزم »^(٩٣) .

قال أبو عبدالرحمن : مراتب أهل الحقائق برمته موجود في التلخيص لوجوه التلخيص وهو دون تفريع الحميدي .

ومن تلك النصوص قول ابن القطان : « أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الحافظ الفقيه على مذهب أهل الظاهر.. برع في الفقه والحديث والتاريخ والآداب، وهو من بيت وزارة، ووزر بنفسه لبعض ملوك الأندلس، ثم تخلَّى

(٩٢) مراتب الجزاء ص ١٩ .

(٩٣) مراتب الجزاء يوم القيامة للحميدي ص ١٠ بتحقيقي .

لطلب العلم والانفراد به، ومولده آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلاث مئة ومات سنة ست وخمسين وأربع مئة^(٩٤) .. ثم ذكر جملة من المصادر التي لم يرجع إليها عبدالحق الإشيلي مباشرة، وإنما روى عنها من طريق نقول ابن حزم .

وقال ابن القطان عن حديث رواه عكرمة بن خالد : « فاعلم أنه حديث لا علة فيه، وقد غلط في تضعيفه ابن حزم، وكان له عذر، وتبعه أبو محمد عبدالحق بغير عذر » .. قال أبو عبد الرحمن : وعذر ابن حزم فيه هو أن له اعتناء بكتاب أبي يحيى الساجي حتى أنه اختصره ورتبه على الحروف وشاع اختصاره المذكور لنبله، وكان في كتاب الساجي تخليط لم يأبه له ابن حزم حين الاختصار؛ فجرّ لغيره الخطأ^(٩٥) .

وذكر ابن القطان حديثاً رواه داود بن عبد الله الأودي، ثم ذكر رد أبي بكر بن مفوز على أبي محمد ابن حزم في ذلك ثم قال : « وقد كتب الحميدي إلى ابن حزم من العراق يخبره بصحة هذا الحديث، وبين له أمر هذا الرجل؛ فلا أدري أرجع عن قوله أم لا؟ »^(٩٦) .

وذكر ابن القطان حديثاً رواه أبو محمد عبدالحق الإشيلي في كتابه الأحكام الكبرى؛ إذ قال : أخبرني القرشي قال: أخبرنا ابن حزم .. إلخ .

قال عبدالحق : هذا الحديث أرويه متصلاً إلى زينب بنت جابر الأحمسية: عن رسول الله ﷺ، وذكره أبو محمد في كتاب المحلى .

وتعقبه ابن القطان بقوله : « إن هذا الحديث لا يوجد مرفوعاً بوجه من

(٩٤) الوهم والإيهام ٢/٢٤٢ .

(٩٥) الوهم والإيهام ٢/١٩٦ .

(٩٦) الوهم والإيهام ٢/٧٦ .

والتجريح^(١٠٢) .. وذكر متون أحاديث أوردها ابن حزم في المحلى بسند واحد وعلق بقوله : «وأظن ابن حزم لما كان ذلك كله بإسناد واحد لَفَقَهُ تشنيعاً على الخصوم الآخذين ببعض ما رُوي بهذا الإسناد التاركين لبعضه^(١٠٣) .. وقال في معرض رده على عبدالحق : وما درى أن أبا محمد ابن حزم لا يقبل حديث من لا يُعرف سواء ادعى لنفسه الثقة أو الصحبة ما لم نخبرنا تابعي بثقته وصحبته؛ فحينئذ يقبل نقله^(١٠٤) .. وقد نسب هذا المذهب في موضع آخر لبعض أهل الظاهر وأيده^(١٠٥) .. وأحال إلى المحلى والإعراب والإيصال، وذكر نص عبدالحق على أنه لم يطلع على الإيصال، ثم قال : «إن كل حديث أورده ابن حزم في كتاب من كتبه فقد فرغ منه في الإيصال بسنده»^(١٠٦)، وأحال إلى كتاب ابن حزم الإعراب^(١٠٧)، وذكر رواية عبدالحق لكتاب حجة الوداع لابن حزم إجازة عن شريح^(١٠٨) .

قال أبو عبد الرحمن : أبو محمد عبدالحق الإشيلي المعروف بابن الخراط في جميع مؤلفاته من المعولين على أبي محمد ابن حزم، وهو يروي مؤلفاته عن طريق شريح تلميذ ابن حزم .. ومؤلفات ابن الخراط نفيسة مليحة جداً، وقد

كتاب الإيصال ٢١٦/١ ب .

(١٠٢) انظر الوهم والإيهام ٢٠٩/٢ و ١٨٧/١ و ١/٨١ أ .

(١٠٣) الوهم والإيهام ١٦٩/١ ب .

(١٠٤) الوهم والإيهام ١٣٩/١ ب .

(١٠٥) الوهم والإيهام ١٤٠/١ ب .

(١٠٦) الوهم والإيهام ١٣٥/١ ب .

(١٠٧) الوهم والإيهام ١٥٤/١ ب .

(١٠٨) الوهم والإيهام ٢٥٠/١ ب .. وعبدالحق يروي كتب ابن حزم بهذا الإسناد :

أخبرني القري: أخبرنا شريح: أخبرنا أبو محمد: انظر الوهم والإيهام م / ٨٥ ب .

تخريج الأحاديث في بقية كتبه، ولم يتعب نفسه في المراجعة ؛ ولهذا دخل عليه نقص كثير في الحكم على الأحاديث تصحيحاً وتضعيفاً .. وبهذه المناسبة أشير إلى أن أبا محمد عبدالحق بن الخراط بنى كتابه الأحكام على كتاب المنتخب المتقى لأبي عمر أحمد بن عبدالمملك الأنصاري ابن أبي مروان (٥٤٩ -) الذي جمع فيه ما افرق في أمهات المسندات من نوازل الشرع وكان ظاهرياً^(١١١)، ولأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالمملك المراكشي صاحب كتاب الذيل والتكملة كتاب جمع فيه بين كتابي ابن القطان وابن المواق على الأحكام لعبدالحق مع زيادات نبيلة من قبله .

وقال الشيخ محمد المنتصر الكتاني عن الوهم والإيهام : « فقد رد عليه ابن المواق الفاسي، وانتصر له ابن عبدالمملك المراكشي، ورتبه مغلطاي الحافظ المصري.. وهو عمدة الحافظ ابن حجر المصري في جميع مؤلفاته الحديثية، كما رتبه صدر الدين بن المرجل^(١١٢) .

قال أبو عبد الرحمن : وعمدتي في الرجوع إلى كتاب ابن القطان « بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام » صورتان لنسختين خطيتين صورتها من معهد المخطوطات بمصر، ولقد طبع أخيراً في ستة مجلدات بتحقيق الدكتور الحسين آيت سعيد ، وصدر عن دار طيبة بالرياض عام ١٤١٨ هـ .

ومن تلك النصوص قول صلاح الدين الصفدي (٦٩٦-٧٦٤ هـ) : « أنشدني الحافظ المحدث الأديب فتح الدين محمد بن أبي عمرو محمد بن أبي بكر بن محمد بن سيد الناس اليعمري بالقاهرة المحروسة قال: أنشدني والذي قال : أنشدني الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج البناني^(١١٣) قال : أنشدني

(١١١) التكملة ١/ ٥٤-٥٨ رقم ١٦٣ .

(١١٢) فاس عاصمة الإدارة ورسائل أخرى ص ٢٠٣ .

(١١٣) مصحفه عن النباتي .

أبو الوليد سعد السعود بن أحمد بن هشام قال : أنشدني الحافظ أبو العباس أحمد ابن عبد الملك قال : أنشدنا أبو أسامة يعقوب قال : أنشدني والذي الفقيه الحافظ أبو محمد ابن حزم لنفسه :

من عذيري من أناس جهلوا ثم ظنوا أنهم أهل النظر
ركبوا الرأي عناداً فسروا في ظلام تاه فيه من عبر
وطريق الرشدهج مهيع مثلما أبصرت في الأفق القمر
وهو الإجماع والنص الذي ليس إلا في كتاب أو أثر

ولابن حزم أيضاً أبيات عينية في هذه المادة أضربت عن إثباتها لطولها إلا أنه ختمها بقوله :

فخيرُ الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع
وقد بالغ في الشناع حيث قال :

إن كنت كاذبة الذي حدثتي فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر
الوائبين على القياس تمرداً والراغبين عن التمسك بالأثر

واستطرد استطراداً قبيحاً (وحاش لله) ليس أبو حنيفة وزفر ممن يُقال في حقهما مثل هذا ^(١١٤).

وقال الصفدي : « وعلى ذكر ما الموصولة أنشدني من لفظة الشيخ الإمام الحافظ أبو الفتوح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري قال : أنشدني والذي أبو عمرو محمد قال : أنشدني والذي أبو بكر محمد قال : أنشدني ابن عروة القيسي قال : أنشدني أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن علي بن سعيد ابن حزم الظاهري لنفسه :

(١١٤) الغيث المسجّم ١/ ٦٤-٦٥ .

تجئب صديقاً مثل ما واحذر الذي تراه كعمرو بين عرب وأعجم
 فإن صديق السوء يزري وشاهدي كما شرقت صدر القناة من الدم
 قلت : قوله : « مثل ما » أي صديقاً يحتاج إلى ما يكمله كاحتياج ما
 الموصولة إلى الصلة والعائد، واحذر الذي تراه كعمرو أي صديقاً فيه زيادة لا
 حاجة إليها كالواو التي في آخر عمرو ؛ لأن صديق السوء يزري بصاحبه كما أن
 المؤنث إذا جاور المذكر أكسبه التأنيث كقولهم : ذهبت بعض أصابعه .. وكقول
 الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم
 لأن الصدر الذي هو مذكر لما أضيف إلى القناة أنث فعله وهو شرقت،
 والتأنيث سوء بالنسبة إلى التذكير.. قال الله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ [سورة آل عمران / ٣٦] وهذا البيت مما
 أنشده سيويه، وأهل الكوفة يستشهدون به، وساقه ابن السكيت في كتاب المذكر
 والمؤنث له، ويحتمل أن يكون أراد بالذي كعمرو عمراً الذي في قول الشاعر :
 والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار
 والأول أليق وأحسن^(١١٥) .. وقال الصفدي : « وقال الخليل بن أحمد
 رحمه الله تعالى :

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي وإن غيب عن بصري
 العين تبصر من تهوى وتفقدته وناظر القلب لا يخلو من النظر
 وقال في هذا المعنى الشيخ جمال الدين بن الحاجب رحمه الله تعالى :
 إن تغيبوا عن العيان فأنتم في قلوب حضوركم مستمر

(١١٥) الغيث المسجم ١/ ٤٠٩-٤١٠ .

بيتي ابن حزم الظاهري، وهما :

إن كنت كاذبة الذي حدثني
الواثين على القياس تمرداً
فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر
والراغبين عن التمسك بالأثر

فأنشد :

ما كان يحسن يا ابن حزم ذم من
فأبوحنيفة فضله متواتر
حاز العلوم وفاق فضلاً واشتهر
ونظيره في الفضل صاحبه زفر
إن لم تكن قد ثبت من هذا ففي
ليس القياس وقد تكون أدلة
ظني بأنك لا تباعد من سقر
للحكم من نص الكتاب أو الخبر
ولكن مع عدم ثقب أدلة
وبذاك قد وصي معاذاً إذ أمر^(١٢١)

وقال المحبي عن عبدالحفيظ المذكور : « ولما أنشد بعض من حضر مجلس
سماعه في الحديث بزبيد المحروسة على شيخه محمد الخاص الحنفي بيتي ابن
حزم الظاهري وهما :

إن كنت كاذبة الذي حدثني
الواثين على القياس تمرداً
فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر
والراغبين عن التمسك بالأثر

أخذ الشيخ في ذم ابن حزم لأجلهما؛ فقال صاحب الترجمة بديهة :

ما كان يحسن يا ابن حزم ذم من
فأبوحنيفة فضله متواتر
حاز العلوم وفاق فضلاً واشتهر
ونظيره في الفضل صاحبه زفر
إن لم تكن قد ثبت من هذا ففي
ليس القياس وقد تكون أدلة
ظني بأنك لا تباعد من سقر
للحكم من نص الكتاب أو الخبر

(١٢١) نفحة الريحانة ٣ / ٣٧٠-٣٧١ .

لكن مع عدم ثقباس أدلة وذاك قد وصى معاذاً إذ أمر

فأعجب الحاضرون بذلك، وكتبوه عنه في الحال» (١٢٢).

قال أبو عبد الرحمن : رد عبد الحفيظ نظم بارد ميت، وهذا المقلد النكرة عدا طوره في شتمه للإمام أبي محمد ابن حزم، والأفطع من ذلك أن البيتين ليسا من شعر ابن حزم، بل قىلا قبل أن يولد ابن حزم ؛ فهذا الخطيب البغدادي ينسبهما لأحمد بن المعذل، ولم يولد ابن حزم إلا بعد موت ابن المعذل بقرون، وهذا ابن عبد البر يروي عن غلام خليل - وهو قبل ابن حزم بقرون - أنهما لأحد البصريين، وهذا الإمام الطحاوي (وهو قبل ابن حزم بقرون) يسمعهما فيقول: وددت أن لي أجرهما وحسناتهما وعلي إثمهما وسيئاتهما (١٢٣).

ولعل أبا محمد ابن حزم رأى هذين البيتين في كتاب جامع بيان العلم أو غيره فاستشهد بهما .. ولأبي حنيفة وزفر وغيرهما من الأتباع رحمهم الله جنوح عن النصوص الشرعية اتباعاً للأقيسة غير متعينة الاحتمال والآراء المرسلة .. ولو كانت آراؤهم هذه في الأدب أو اللغة أو الثقافات النظرية لفرحنا بها افتخاراً بالتراث العربي، أما مع حضور النصوص الشرعية فالمطلوب مراد شرعي لا ثقافة بشرية، ومن النصوص الإحالة إلى العفو والبراءة واستصحاب الحال .

ومن النصوص التي تحتاج إلى محاكمة قول أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الجباني [- ٤٨٦هـ] .. قال محمد إبراهيم الكتاني : « كتاب التنبيه على

(١٢٢) خلاصة الأثر ٢/ ٣٠٨ .

(١٢٣) انظر تاريخ بغداد ١٣/ ٣٩٣، وجامع بيان العلم ٢/ ٩٥-٩٦، ولسان الميزان ١/

٢٧٦، ومقدمة سعيد الأفغاني للمخص إبطال القياس ص ٩ .

شدوذ ابن حزم لمعاصر ابن حزم أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي^(١٢٤) الجياني القرطبي المشاور بها، نزيل سبتة، وقاضي طنجة ومكناسة وغرناطة، المتوفى سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م : يندد بابن حزم فيما خالف الحق، ونافر الصدق من غمطه على أئمة الدين، واستخفافه بأقدار العلماء الراسخين، وقطعه عمره في تزييف دقائق علومهم وبديع أقوالهم في الأصول والفروع، وترك ما وجب عليه وعلى غيره ممن يدين بالإسلام من اتباعهم بإحسان، والدعاء لهم بالرحمة والغفران^(١٢٥).. ويذكر أن شرذمة لا دين عندها، ولا عقل معها، ولا خلق

(١٢٤) قال أبو عبد الرحمن : سيصدر إن شاء الله عن دار ابن حزم قريباً دراسة لهذا الكتاب .
(١٢٥) قال أبو عبد الرحمن : هذا افتراء محض، فأبو محمد كثير الدعاء والترضي عن الأئمة، والإشادة بعلمهم وفضلهم مع الموازنة العادلة في كتابه « الرسالة الباهرة » وهي مختصر يوضح منهجه في جميع كتبه، وإنما حملته العنيفة على العوام المتسمين بالفقه، المجادلين بالباطل ولا علم عندهم ممن بلي بهم من غوغائهم أهل بلده.. قال رحمه الله في « الرسالة الباهرة » - بعد كلامه النفيس عن الأئمة والموازنة - ص ٢٢-٢٣ : « وأما الخشاعة التي نحن فيها فأكثروهم ﴿ أَمُوتُ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة النحل / ٢١] ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْفَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان / ٤٤] .. لا يحققون حقيقة، ولا يأنفون من حماقة، ولا يسألون عن برهان، ولا يُبالون كيف أخذوا دينهم في اتباع ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم ومن نشؤوا بين أظهرهم كما فعل أهل الكتاب سواء سواء، وقد أنذر رسول الله ﷺ بذلك؛ إذ أخبر أننا سنركب سنن من كان قبلنا حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه.. فقيل له: يا رسول الله: أليهود والنصارى؟.. قال : فمن إذن .. أو كلاماً هذا معناه .. نعوذ بالله من الخذلان والضللال، ونسأله الثبات على ما مضى عليه الصحابة والتابعون ومن قفا سبيلهم وصبر على مر الحق إذ فسد الأكثر، وأن يعصمنا من بدعة التقليد المحدث بعد القرون الثلاثة المحمودة.. آمين.. قال أبو محمد رحمه الله : ولو استطاعت هذه الطائفة المستأخرة من الحنفية والمالكية أن يدعوا لصاحبهم أنه تكلم في المهد ما تأخروا عن ذلك، فقد

لها: مالت إلى القول بمذهبه، ومطالعة تأليفه التي لا تفيد إلا سب من سلف، والطعن عليهم والمعاداة لهم^(١٢٦)؛ فرأى التنبيه على قبح مذهبه، وسوء معتقده للأئمة^(١٢٧)، وفاضلي هذه الأمة، وإظهاره: لثلبهم في كل باب من تأليفه.. ولهجته بالاستخفاف بهم في كل ورقة من تصنيفه فغلّ من لا يتقي الله تعالى ولا يستحي من عباده ولا يراعي حق سلفه.. ويذكر طرفاً من جهله فيما أورد، واضطرابه فيما ذكر، وتصحيحه لما نقل وسطر، وقوله بما لم يقله من تقدم أو تأخر.

والمؤلف ينقل فصلاً من كلام ابن حزم قد يبلغ الورقة والورقتين ثم يعقب بالرد عليه بسيل جارف من السب الفاحش، والقذف اللاذع البذيء، واللعن والتكفير.. وهو يملك ثروة ضخمة جداً من هذه الألفاظ النابية ينفق منها على ابن حزم في إسراف وتبذير في لهجة من توثرت أعصابه وفقد السيطرة عليها؛ فهو مخذول، ضال شقي، مارق، معطل، جاهل، مفتون، وقح، معاند، فاسد، كافر ملحد، مخلط، مستخف، سخيف العقل، قليل الدين، عديم الحياء، مفارق لجماعة المسلمين، متلاعب بدينه، كذاب أشير، أعمى البصيرة، تائه في مهمته الحيرة، سابح في بحر العمى والظلمة.. ما حاول في كتبه إلا هدم الإسلام

رأيت في بعض الكتب التي جمعوها في فضائل مالك رحمه الله : أنه كان في فخذة مكتوب بالنور « مالك عدة الله » .. وأدخلوا في فضائله أنه قام خمساً وعشرين سنة ليس بينه وبين مسجد رسول الله إلا نيف وعشرون خطوة، ولم يُصلّ فيه صلاة فرض ولا جمعة !!! وهذا لا يدخل في الفضائل أصلاً، بل هو مما يجب أن يُعتذر له منه ، وما نظن به في ذلك إلا خيراً أو عذراً .

(١٢٦) قال أبو عبد الرحمن : هذا هو والله الافتراء على السلف بعينه ومعاداتهم؛ لأنه يقدر في إمام من أئمة المسلمين بالدعوة المجردة دون شاهد مع تعمد طمسه قيام هذا الإمام في نشر علم السلف والدفاع عنهم .

(١٢٧) هذا أسلوب أعجمي.. يريد معتقده فيهم أو عنهم .

العلم الحديث من كروية الأرض، وحسبك من جهله أنه يستخف بكتاب ابن حزم في الملل والنحل وهو أحد كتب قلائل يفخر بها التراث العربي والإسلامي في هذه العصر .

وكتاب المطار في اللهو والدعابة من تأليف ابن حزم أول من ذكره أبو الأصبغ، وقد رأيت نصوصاً كثيرة منقولة عن ابن حزم في الجذوة كلها من باب اللهو والدعابة .

وقال علي بن محمد بن علي الرعيني من أعيان القرن السابع: « أخبرني [يعني أبا الحسين محمد بن زرقون] قراءة عليه وسماعاً من لفظه قال : حدثني الحافظ أبو بكر الجد قال : حدثني أبو الحسن بن الأخضر قال : حدثني أبو الحجاج الأعمى : أنه لقي ابن حزم، فقال له مكان التحية : يا أستاذ: هل تجمع العرب فاعلاً على فعلاً؟ .. قال : فقلت له : نعم.. وأخذت أورد له أمثلة على جهة البيان .. فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب وهو يقول : أرحطني من سبحان .. أرحطني من سبحان ! .

قلت : وقد ذكر نحو هذا عنه القاضي أبو الأصبغ بن سهل في كتابه الذي سماه بالتنبيه على شذوذ ابن حزم، وقال : إن الأديب أبا بكر محمد بن أغلب المرسى حدثه : أن الأعمى ذكر ذلك في نحو ما تقدم.. إلا أنه قال : إن ابن حزم قال له عندما أجابه عن سؤاله : فما يمنع أن يكون سبحان جمع سابح ؟ .. قال الأعمى : فعجبت من جهله اهـ^(١٢٩) .. وذكر عن شيخه أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور العبدري : أنه قرأ على المحدث أبي العباس أحمد بن سلمة الأنصاري كتاب حجة الوداع لابن حزم^(١٣٠)، وذكر أنه قرأ على أبي الحسين محمد بن القاضي

(١٢٩) الإيراد ص ٣٣-٣٤ .

(١٣٠) الإيراد ص ١٧٢ .

ورابعها : في سياق هذا الخبر روح العداة والتعصب؛ لأنه ذكر فيها أن ابن حزم قال للأعلم مكان التحية : يا أستاذ ! .

قال أبو عبد الرحمن : محال أن يترك إمام المسلمين أبو محمد ابن حزم تحية الإسلام، ومستبعد أن يسأل الأعلم وهو صبي ويلقبه بالأستاذ، ومحال أن يجهل أبو محمد بداءة التصريف وهو إمام في العربية قبل أن يكون إماماً في الفقه، ومستبعد أن يصح هذا الخبر فلا يتناقله الناس الذين يفرحون بكل طريفة ظريفة عن ابن حزم ويكون هذا الخبر وقفاً على خصمي ابن حزم (ابن زرقون، وابن سهل)، ثم مع هذا لا تشتهر القصة في ترجمة الأعلم بكتب الأعلام .

قال أبو عبد الرحمن : ومع هذه البلايا في هذا الخبر فلو صح - وهو لا يصح - لكان الأمر أبرد من ماء التشرين، ولا يضير إمامة ابن حزم ذلك .
وابن الجرد كما قال ابن الأبار : يحدث من حفظه بأشياء غريبة^(١٣٢) .

ومن النصوص التي تحتاج إلى محاكمة قول ياقوت الحموي [٥٧٤-٦٢٦هـ] : «قرأت بخط أبي بكر محمد بن طرخان بن بلتكين بن بجكم قال : ولد الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بقريته، وهي من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم في شهر جمادى الأولى من سنة ٤٥٧ .. والقرية التي له على بعد نصف فرسخ من أونة يقال لها متليجم وهي ملكه وملك سلفه من قبله .. قال : وقال لي أبو محمد ابن العربي : إن أبا محمد ابن حزم ولد بقرطبة، وجده سعيد ولد بأونة، ثم انتقل إلى قرطبة وولي فيها الوزارة، ثم ابنه علي

(١٣٢) التكملة ٦٥/٢ ضمن رقم ١٧٧، وكانت ميزته أنه حافظ لمذهب مالك، ولم يكن الحديث شأنه، وأنه استفاد ثروة عظيمة.. هكذا ذكر عنه ابن الأبار، وقد مضت نصوص بعض العلماء عن كذب خصوم ابن حزم عليه، بل وجدنا الإمام ابن حزم نفسه ينفي عنه بعض الأكاذيب في حياته في ردوده على العتقي وابن البارية .

الإمام، وأقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة .. وقال : إنني بلغت إلى هذا السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات .. قال : قال لي الوزير أبو محمد ابن العربي : أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم : أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه؛ فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه، فجلس ولم يركع؛ فقال له أستاذه (يعني الذي ربه) بإشارة : أن قُمْ فصل تحية المسجد .. فلم يفهم .. فقال بعض المجاورين له : أبلغت هذا السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة (وكان قد بلغ حيثئذ ستة وعشرين عاماً) .. قال : فقمتم وركعت وفهمت إذن إشارة الأستاذ إليّ بذلك .. قال فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للأحياء من أقرباء الميت دخلت المسجد فبادرت بالركوع ؛ فقليل : اجلس اجلس .. ليس هذا وقت صلاة، فانصرفت عن الميت وقد خزيت، ولحقني ما هانت عليّ به نفسي، وقلت للأستاذ : دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبدالله بن دحون؛ فدلني، فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى فيه، وسألته الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته؛ فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمته الله؛ فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة .. قال : وقال لي الوزير الإمام أبو محمد ابن العربي : صحبت الشيخ الإمام أبا محمد علي ابن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته حاشي المجلد الأخير من كتاب الفصل، وهو يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه ؛ فيكون الفائت نحو السدس .. وقرأنا من كتاب الإيصال أربع مجلدات من كتاب الإمام أبي محمد بن حزم في سنة ٤٥٦، ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى ما ذكرته من الناقص وما لم أقرأه من كتاب الإيصال .. وكان عند الإمام أبي محمد ابن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلداً بخط يده، وكان في غاية الإدماج.

قال : وقال لي الوزير أبو محمد ابن العربي: وربما كان للإمام أبي محمد ابن حزم شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجول فيها بشرق الأندلس فلم أسمع، ولي بجميع مصنفاته ومسموعاته إجازة منه مرات عدة كثيرة .. آخرها كان بخط البجكمي رحمه الله « (١٣٣) .

قال أبو عبد الرحمن: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي كان جماعاً للأخبار، وله أوهام كثيرة في كتبه .. أما هو في ذات نفسه فموثق غير متهم، ولعل كتابه (المقتضب) اختصار لجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وهو لا يزال مخطوطاً .. وكذلك كتابه أخبار أهل الملل وقصص أهل النحل ذكره في معجم البلدان في مادة بربر، وربما لخص فيه فصل ابن حزم أو استفاد منه ؛ لأنه يحتفي بأبي محمد كثيراً.. وكتاب معجم الأدباء قال عنه الزركلي: (وفي النسخة المطبوعة نقص استدرك بتراجم ملفقة دست فيه) (١٣٤) .

وابن طرخان الذي ذكره له ترجمة في الوافي للصفدي (١٣٥)، وقد شهدوا له بصحة النقل، وبالصلاح والزهد والعبادة والأمانة والصدق .. وشيخ ابن طرخان أبو محمد ابن العربي تلميذ ابن حزم ثقة، وياقوت ثقة .. إلا أن كل ما رواه ابن طرخان عن ابن العربي في هذه الترجمة ليس بصحيح والخطأ فيه من وجوه :

أولها : أنه حدد تاريخ وفاة أبي محمد بسنة ٤٥٧ والمتفق عليه أن وفاته سنة ٤٥٦ هـ .

وثانيها : الزعم بأن أبا محمد أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه

(١٣٣) معجم الأدباء ٤/ ١٦٥٢-١٦٥٣ .

(١٣٤) الأعلام ٨/ ١٣١ الطبعة الثامنة عام ١٩٨٩ م ، وانظر مقدمة الأستاذ الدكتور إحسان

عباس رحمه الله لمعجم الأدباء ١/ ب - و .

(١٣٥) انظر الوافي ٣/ ١٦٩-١٧٠ .

ستاً وعشرين سنة.. قال أبو عبد الرحمن : أول ما ولي أبو محمد الوزارة للمرتضى في حدود سنة ٤٠٨ وعمره يقارب السادسة والعشرين، ولم يبقَ فيها إلا شهوراً.. هذا باتفاق المؤرخين، وقد نص ابن حزم على ذلك في الطوق .

وثالثها : أنه ذكر أن أبا محمد كان وزيراً وهو في السادسة والعشرين، وأن مربيه كان معه، وأنه لا يعرف ما يعرفه العوام من أحكام الصلاة ؟!

ورابعها : أن قراءة أبي محمد الفقه، واسترشاده إلى طلب العلم كان حسبما رواه ياقوت سنة ٤٠٩ هـ حيث كان عمر أبي محمد ستاً وعشرين سنة، وهذا خطأ؛ لأن أبا محمد قرأ الحديث والفقه على المشايخ سنة ٣٩٩، ومن مشايخه الذين يروي عنهم بإكثار ابن الجسور وابن وجه الجنة، وكلاهما مات في سنتي ٤٠١-٤٠٢ هـ .

وخامسها : أن ابن العربي يذكر حسب هذه الرواية : أن الفصل ستة أجزاء قرأ منها على أبي محمد خمسة وفاته السادس.. ومن هذا النص استدل بعض المتأخرين على أن كتاب الفصل المطبوع ينقص منه الجزء السادس .

قال أبو عبد الرحمن : الفصل خمسة أجزاء فقط والدليل على ذلك : أن أبا محمد ابن حزم قال: (وقد أحكمنا هذا غاية الإحكام والحمد لله رب العالمين في باب أفردناه لهذا المعنى في آخر كتابنا الموسوم بالفصل ترجمته باب الكلام على من قال بتكافؤ الأدلة) اهـ^(١٣٦) .. وتكافؤ الأدلة من المباحث الأخيرة في الجزء الخامس؛ فدل ذلك على أن الفصل خمسة فقط .

وسادسها : أن دراسة أبي محمد كانت في المسجد: مسجد الجامع، ومسجد القمري، ومسجد بالرصافة.. وكل ذلك منذ سنة ٣٩٩ قبل أن يبلغ السادسة والعشرين بعشر سنوات؛ فكيف لا يعرف ما يعرفه العامي من أحكام الصلاة وهو ابن وزير يدرس في المساجد على مشايخ الفقه والحديث ؟!

(١٣٦) الإحكام لأصول الأحكام ١/١٦ .

وسابعها : أن هذه القصة التي رواها ياقوت توحى بأن صلاته على الجنازة وهو ابن ست وعشرين هي أول صلاة يحضرها على الجنازة ؟ ! .. وهذا غير صحيح ؛ فقد أخبرنا أبو محمد رحمه الله أنه صلى على الجنازة قبل ذلك بأحد عشر عاماً أي وعمره خمس عشرة سنة عندما حكى صلاته على المؤيد^(١٣٧) هشام.

وثامنها : يفهم من حديث ابن حزم المزعوم لابن العربي في هذا الخبر : أن ابن حزم لا يميز الركعتين بعد العصر، وإنما أراد أن يصليهما في طفولته جهلاً بذلك .

قال أبو عبد الرحمن : ما شاء الله كان ! .. مذهب أبي محمد استحسان صلاة ركعتين بعد العصر، وقد نصر هذا المذهب بأبلغ حجة^(١٣٨) .

وتاسعها : يفهم من هذا الخبر المكذوب : أن ابن حزم بعدما كبر يرى أن تحية المسجد واجبة ! .. قال أبو عبد الرحمن : وهذه طائفة أخرى ؛ لأن تحية المسجد عند ابن حزم في آخر مؤلفاته سنة مؤكدة وليست واجبة^(١٣٩) .

قال أبو عبد الرحمن : لهذا كله أقول : إن متن هذا النص عن ابن العربي منكر جداً ؛ لأن كل حرف فيه ينافي البديهي المشهور من حياة ابن حزم : فإما أن نشك في ياقوت أو ابن طرخان أو ابن العربي لأجل هذا النص مع أن كل واحد منهم ثقة، وإما أن يكون ابن طرخان سمع كلاماً من ابن العربي لم يدونه إلا بعد سنين فوهم، وإما أن يكون ياقوت قرأ خط رجل غير ثقة وكان يحسبه خط ابن طرخان، وإما أن يكون لا يعرف خط ابن طرخان فعُشَّ بخط غيره .. ولسنا نزعم بأن النص محرف من ست عشرة إلى ست عشرين - كما قال أبو زهرة - ؛ لأن دعوى التحريف لا ترفع جميع بلايا النص ! .

(١٣٧) انظر الفصل ١/ ٤٧-٤٨ .

(١٣٨) المحلى ٢/ ٢٦٤-٢٧٥ و ٣/ ٢-٧ ط م المنيرة .

(١٣٩) المحلى ٢/ ٢٣١ .

ملوك وأمراء عصره من لقبه المعتمد، وإنما هناك المعتمد بن عباد، ولم يدرك أبو محمد حكمه، وهناك المعتد بالله آخر من وزر له أبو محمد من خلفاء بني أمية، فلعله المقصود .

والمظفر هو المظفر العامري الذي حكم بلنسية هو ومبارك العامري، وقد أدركه أبو محمد في بلنسية في آخر حياته سنة ٤٠٨ هـ، وقاضي بلنسية هو عمر بن محمد بن واجب، ولكن اليسع لم يدركه وبينهما سنين؛ فلعله يروي عن أحد أحفاده، ويكون في الكلام نقص .. على أن أبا محمد صار إماماً لأهل الظاهر متبحراً في العلوم قبل أن يبلغ قاضي بلنسية الحلم؛ لأنه لم يبلغ إلا قريباً من سنة ٤٢٥ هـ، فكيف حضر أبو محمد مجلس صبي لم يبلغ الحلم؟! .. ولقد شارك ابن واجب أبا محمد في السماع من شيخه أحمد الطلمنكي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

وقال عمر بن خليل يُحذّر طالب العلم من كتب ابن حزم : « وليحترز من كلام ابن حزم إذا تكلم فيما يتعلق بأصول الدين وقواعد العقائد، وفيما يتعلق بالمعاني والحقائق؛ لأن هذا الرجل لم يكن من أهل هذا العلم؛ فلما تكلم فيما ليس يعن له لم يحسن »^(١٤٣) .

قال أبو عبد الرحمن : صاحب هذا النص هو أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني الإشيلي المتوفى بتونس سنة ٧١٧ هـ، وكتابه هذا عن أغلاط العامة في إيمانهم وبدعهم وعوائدهم، ومنهجه في هذا الكتاب لا يبعده عن غمار العامة الذين يرد عليهم؛ ولهذا كان حكمه على أبي محمد بأنه ليس من أهل العلم بالأصول والعقائد من عجائب عوام المتسبين للعلم الذين بُلي بهم أبو محمد في حياته وبعد مماته .. على أن أبا محمد غير موفق في كثير من مسائل الأسماء والصفات، وليس مرد ذلك لجهله، وإنما مرده لخطأ نظره في تطبيق

(١٤٣) لحن العامة ص ٢٧٦ .

الظاهر .. مع أنه بحر لا ساحل له في العلم .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي [٧٩٠هـ -] : « لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلماً وجدت فرقة زائغة ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف؛ وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلزم الأخذ عن الشيوخ ولا تأدب بأدابهم .. وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم » اهـ^(١٤٤).

قال أبو عبد الرحمن : إن الإمام الشاطبي قرأ العين في كتابيه المليحين الموافقات والاعتصام .. إلا أن هذين الكتابين لا يساويان حجة من غير ابن حزم مع ما فيهما من تعقيد وأخطاء ليس هذا محل بسطها .. هذه واحدة.

والثانية : أن الشاطبي غير مُحَقِّق في زعمه أن أبا محمد عار عن الشيوخ؛ لأنني ما قرأت عن عالم يُشار إليه بالبنان في بلاد أبي محمد دون أن يتلمذ عليه أبو محمد، بل هو من أكثر أترابه شيوخاً وله معجم بذلك.. ولكن أبا محمد يتميز بملحظين :

أولهما : أن روايته عن مشايخه بالإجازة، أو النقل عنهم فيما يجمع من طرائف وأخبار .

وآخرهما : أن له قلة من المشايخ الخُلص لازمهم في صغره ملازمة التلميذ، ثم كان له مشايخ لازمهم ملازمة الند يستفيد من علمهم ولا يستسلم لحضانتهم؛ لأن علمه وعقله أكبر من ذلك .

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد أحمد عlish [١٢١٧-١٢٩٩هـ] : « واعلم أن أصل هذا الزيغ للظاهرية الذين كانوا ظهوروا في الأندلس وتقوّت شوكتهم مدة، ثم محّا الله آثارهم فشرعت هذه الشردمة في إحيائها .. قال البرزلي : وأول من

طعن في المدونة سعيد بن الحداد ؛ ففي المدارك أن ابن الحداد صاحب سحنون أولاً وسمع منه ونزع آخراً إلى مذهب الشافعي، بل كثيراً ما يخالفه ويعتمد على النظر والحجة وكان يسمي المدونة المرونة^(١٤٥)، وينقض بعضها، وذكر غيره أنه قال : ترك الناس السنن وانتقلوا إلى قوله : قلت، رأيت .. ورفضه أصحاب سحنون، وهجروه، وأغروا به ابن طالب القاضي؛ فهم به، ثم نشأت بينهما صفة؛ فتركه، وبقي مهجور الباب قليل الأصحاب إلى أن ناظر آخراً عبدالله الشيعي وأخاه العباس عند دخولهما بدعوة بني عبيد القيروان؛ فمالت إليه قلوب العامة، وأجمعوا على فضله ؛ وذلك أنه قام معهم مقام ابن حنبل في القول بخلق القرآن، وباع نفسه في مناظرتهم لله تعالى وكان ناف على سبعين سنة^(١٤٦).

قال: قتيل الخوارج خير قتيل؛ لأنهم كانوا قتلوا اثنين من أصحاب سحنون، وأرادوا حمل الناس على مذهبهم ؛ فدخل منهم على أهل القيروان روع كبير ؛ فناظرهم حتى أوقفهم وسلمه الله منهم بحسن نيته .. ثم قال البرزلي : ورأيت في بعض تواريخ الأندلس أن ابن حزم رأس الظاهرية بالأندلس.. قال : إنما أشهر مذهب مالك والمدنيين وهذه الفروع بأفريقية دخول سحنون بن سعيد

(١٤٥) هكذا في الأصل من الطبعة، والذي في المصادر المدوذة.. قال الذهبي في العبر ٢/ ١٢٢ في كلامه عن الحداد : « وأخذ يسمي المدونة المدوذة.. وللحداد ترجمة حفيظة في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٠٥-٢١٤، وقد ذكر ص ٢٠٦: أن الحداد صنف في الرد على المدونة.. وأحال محقق السير إلى نص لابن خلكان في الوفيات ٣/ ١٨١-١٨٢ عن المدونة، ولم أجده بطبعة الدكتور إحسان عباس بعد طول تتبع .

(١٤٦) قال أبو عبد الرحمن : هذا من فضله رحمه الله؛ فما وجه الطعن عليه.. ثم إن ترك «المدونة» إلى نصوص الشريعة المطهرة مع النظر وطلب البرهان مدح ومنقبة؛ فكيف يعد هذا عيباً لولا التعصب الأعمى في الفروع.. وما على العاجز في تقليده، وأن ذلك من سؤال أهل الذكر، ولكن ليس له أن يعيب بجهله من يملك النظر والاختيار .

ومُبْتَدِي^(١٤٨) الطلبة ؛ فإذا سئل عن مسألة يقول لمن حضره أو السائل : ما قلت أنت فيها، وما ظهر لك ؟ .. ولا يزال يستميل حتى ينطق فيها بشيء من رأيه ؛ فيجود فعله ويستحسن رأيه ويقول : قولك فيها خير من قول مالك، ويُزَيَّن له ذلك، ويشككه في نفسه حتى يصير يرى رأي نفسه ويتعاضم، ويقع في مالك وغيره من العلماء.. وقد سلطت عليه في شيء كثير؛ فحمل أمره، واستجهله أهل الفروع بالأندلس، ولم يزل في خمول وعدم اعتناء في مذهبه^(١٤٩).

وكثر أهل الشورى والفقهاء والوثائق بالأندلس حتى خرج الموحدون وأخذوا مراکش من لتونة حاضرة ملكهم؛ فوجدوا فيها كتب فقه كثيرة فاستصعبوها وباعوها من الشواشين^(١٥٠) وغيرهم، وتقدموا إلى الفقهاء الفرعيين، ولما أن اطمأنت بالأمير عبدالمؤمن الدار جمع الفقهاء :- إما لاختبار مذهبهم، أو^(١٥١) حملهم على مذهب ابن حزم - ؛ فحكى عن أبي عبدالله ابن زرقون جامع الاستذكار والمنتقى .. قال : كنت فيمن جمعهم ؛ فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبو جعفر ابن عطية ؛ فخطب خطبة مختصرة، ثم رد رأسه إلى الفقهاء، وقال لهم :

(١٤٨) قال أبو عبد الرحمن : هذا أسلوب أعجمي غير مفهوم !.

(١٤٩) قال أبو عبد الرحمن : إن صح هذا الكلام فهو كلام الباجي في خصمه .. وأبو الوليد الباجي رحمه الله على جلالته في حفظ مسائل الفروع والأصول على مذهب المالكية لا يسبح في بحر أبي محمد ابن حزم رحمه الله .. وأخذ رحمه الله برواية مختصرة تمسك بها على أن الرسول ﷺ كتب يوم الحديبية دليل على عدم تمكنه في الحديث، وأنه إذا أراد أن يجتهد خارج المذهب ضاع .. وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ ، وأهل العلم درجات رحم الله جميعهم .

(١٥٠) لم أجد لها معنى يليق بالسياق لا من تاج العروس ، ولا من تكملة المعاجم لدوزي إلا إن كان المراد أبناء الإمام والممالك ؛ فهذا معنى للشواشين كما في تكملة المعاجم .

(١٥١) الصواب وإما ، وانظر التعليقة (٥٨) .

فقال (كالمنكر علي) : وهي السنة أيضاً .. وكررها، فقلت : ثبت في الصحيح أن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وصلى، ثم جاء وسلم عليه، فرد عليه، وقال : ارجع وصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات.. ثم قال له : والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني ؟ .. فقال له : إذا افتتحت الصلاة إلى آخر الحديث .. فأمره بإعادة الوقتية، ولم يأمره بإعادة ما خرج وقته من الصلوات؛ فعلى هذا بنى الفقهاء أمرهم فيمن دخل عليه خلل في الصلاة^(١٥٤) .. فلما أصغى إليّ اتسع لي القول، فقلت له : يا سيدي جميع ما في هذا الكتاب مبني على الكتاب والسنة وأقوال السلف والإجماع^(١٥٥)، وإنما اختصره الفقهاء تقريباً لمن ينظر فيه من المتعلمين والطلابين؛ فانطلقت السنة الفقهاء الحاضرين حيثئذ ووافقوني على ما قلت، ثم دعا؛ فقال : اللهم وفقنا يا رب العالمين.. وقام إلى منزله، فقال الوزير: أقدمت على سيدنا اليوم يا فقيه .. فقلت : لو سكت للحقني عقوبة الله تعالى .. قال : فكنت أدخل بعد ذلك على عبدالمؤمن فأرى منه البر التام والتكرمة، ثم سكت الحال بعد ذلك حتى جاء أيام حفيده الأمير يعقوب؛ فأراد حمل الناس على كتب ابن حزم، فعارضه فقهاء وقته وفيهم أبو يحيى بن المواق وكان أعلمهم بالحديث والمسائل ؛ فلما

(١٥٤) قال أبو عبد الرحمن : الدعوى صحيحة، والاحتجاج بهذا الحديث غير صحيح؛ لأنه تعليم لمن يجهل الصلاة كيف يعمل، وليس أمراً لعالم بها أن يعيد في الوقت .

(١٥٥) قال أبو عبد الرحمن : كل أهل مذهب يقولون عن مختصراتهم هذا القول؛ وحيثئذ فطالب العلم المؤهل أمام أمرين :

أحدهما : أن تكون كل كتب الفروع عنده صحيحة وإن اختلفت الأقوال؛ لأن كل مختصر مبني على الكتاب والسنة وأقوال السلف والإجماع .

وثانيهما : أن يعمل كما أمره الله عند الاختلاف؛ فيطلب دليل الحكم بالنظر من نصوص الشرع ووجوه الدلالة .

سمع ذلك لزم داره وعارض وأكب على جمع المسائل المتقدمة على ابن حزم حتى أتمها وكان لا يغيب عنه، فلما أتمها جاء إليه؛ فسأله عن حاله وغيبته (وكان ذا جلالة عنده، ومُبرراً^(١٥٦)) له؛ فقال له : يا سيدنا قد كنت في خدمتكم لما سمعتكم تذكرون حمل الناس على كتب ابن حزم وفيها أشياء أعيدكم بالله من حمل الناس عليها، وأخرجت له دفترأ، فلما أخذه الأمير جعل يقرؤه ويقول : أعوذ بالله أن أحمل أمة محمد ﷺ على هذا .. وأثنى على ابن المواق، ودخل منزله، ثم سكت الحال بعد في الفروع وظهرت وقويت، والحمد لله^(١٥٧) .

قال أبو عبد الرحمن : البرزلي الذي ينقل عنه عlish هو أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني المالكي (٧٤٠-٨٤٤هـ) له النوازل، والفتاوى، والديوان الكبير في الفقه، وأغلب الظن أن مصدر البرزلي كتاب الفرق للباجي، والرد على المحلى لابن زرقون .

وحكم عlish على الظاهرية بالزيغ وحمد الله على انقطاع آثارهم : سببه أنهم دعوا إلى الاجتهاد، وأنكروا تقليد الأئمة الأربعة !! .

ولست أدري أي برهان هؤلاء في تبديعهم من يُخطئ المدونة وكلها : قلت، ورأيت ؟! .. أليس هؤلاء مأمورين بالاجتهاد والتدبر في نصوص الشرع لا في نصوص المدونة ؟! .. هل جاءهم أمر من الله بأنه إذا توفي رسول الله ﷺ، وانقطعت الأجيال إلى عهد تأليف المدونة : فلا يسعهم عند الله إلا أن يقلدوا أمر دينهم لما تدلهم عليه المدونة ؟! .

(١٥٦) قال ابن منظور في لسان العرب الطبعة الملونة ص ٣٧١ : « والبرُّ ضد العقوق ، والمبرَّةُ مثله . وبرزتُ والذي بالكسر أبرُّه برأ وهو برُّ به وبارُّ . وأبرُّ الله حجك لغة في برُّ الله حجك أي قبله » فهو يتعدى بنفسه وبالهمزة .

(١٥٧) فتح العلي المالک في الفتوى على مذهب الإمام مالک ١/ ١٠٠-١٠٣ .

وإن صح ما زعمه الباجي من حوار ابن حزم لأخيه في اختصار العلم فهذا محمول بلا ريب على أن ابن حزم يثهم إبراهيم الباجي بمقومات الاجتهاد؛ لما ظهر له من حرصه العلمي؛ فدلّ على الطريق المستقيم.. على أن إبراهيم غير مشهور بين العلماء؛ وإنما المشهور أخوه أحمد.

وتحايل ابن حزم على الطلبة في كسر الجمود على مذهب مالك - إن صح ذلك - من السعي المشكور جزاه الله خيراً.

قال أبو عبد الرحمن : وبهذا أنهى مقدمتي هذه شاكراً للمحقق الفاضل هذه البداية الرائعة في التحقيق .. كما أشكر من ساعد في التصحيح من أمثال الشيخ أحمد يوسف القادري، والشيخ علي إدريس، وأستاذنا الدكتور محمد خير البقاعي، والحمد لله بدءاً وعدداً.

وكتبه لكم

أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

- عفا الله عنه -

تم الفراغ منه بمدينة الرياض ظهر يوم الخميس الموافق ١٢/١٢/١٤٢٣هـ، ثم تمت المعاودة بالرياض أيضاً ظهر يوم الإثنين الموافق ٢٨/٣/١٤٢٥هـ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.